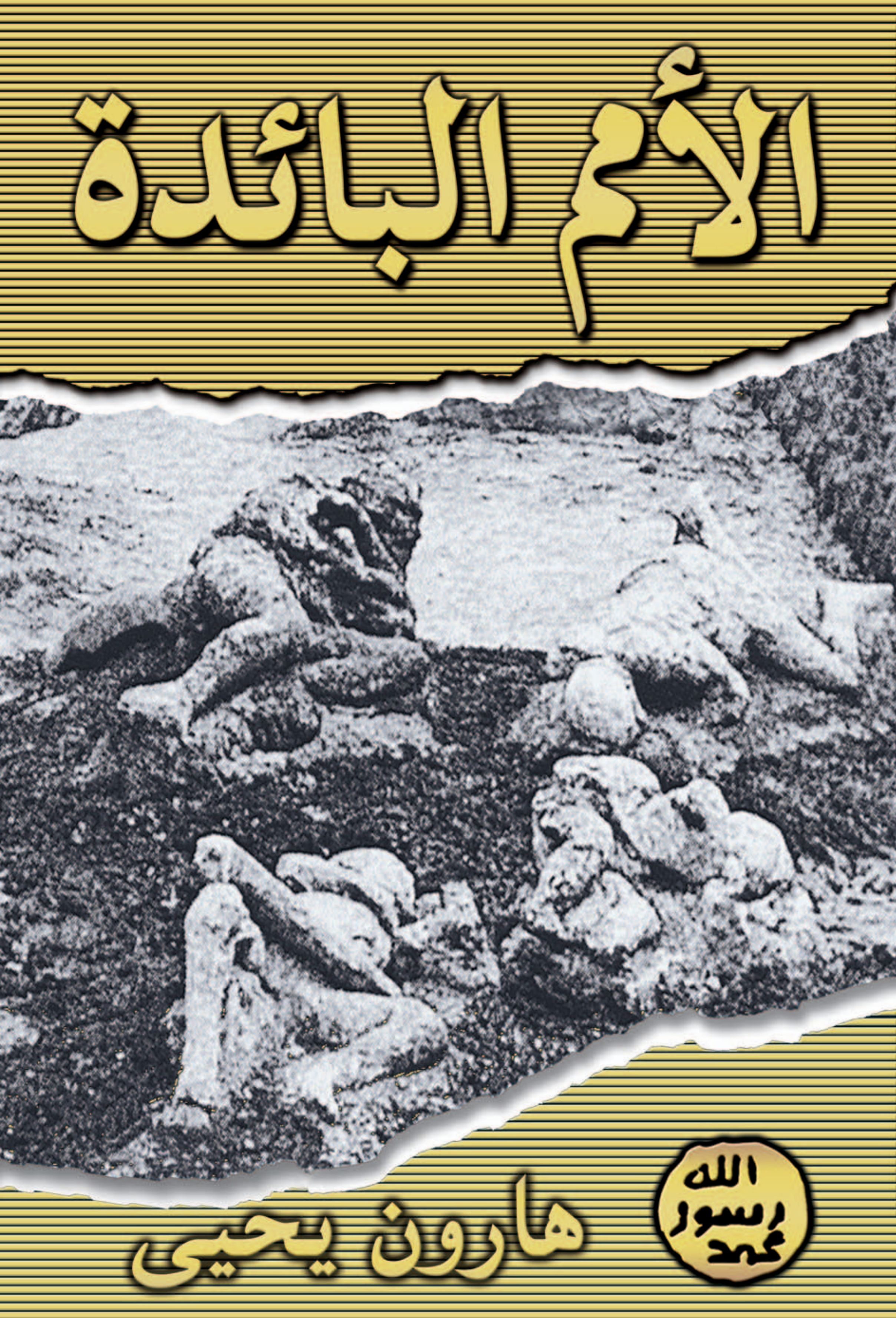

الأمم البائدة
هارون يحيى
الله
رسول
محمد

قوم نوح الذين أغرقهم طُوفان عظيم...
عاد، القوم الذين دُفنوا تحت وطأة عاصفة رملية عاتية..
قوم لوط، مارسوا اللواط فأُبيدوا عن سطح الأرض بالزلازل والبراكين...
جيش فرعون الذي اختفى في البحر...
والعديد من الأمم الأخرى القديمة التي مسحت عن وجه الارض، أبادها الله بسبب تجديفها عليه...
يبحث هذا الكتاب كيف أبيدت هذه الأقوام التي ذكرها القرآن الكريم؟! ويعرض ذلك مقترناً بدلائل موثقة من خلال الأبحاث الأثرية والسجلات التاريخية لهذه الأقوام.





ولد المؤلف الذي يكتب تحت اسم مستعار هو هارون يحيى في انقرة عام ١٩٥٦، درس الفنون في جامعة معمار سنان في اسطنبول والفلسفة في جامعة اسطانبول، ومنذ عام ١٩٨٠ نشر المؤلف الكثير من الكتب في موضوعات السياسة والعلم والايمان. وهارون يحيى معروف كمؤلف له كثير من الاعمال التي تكشف زيف نظرية التطور، وبطلان مزاعمها وتكشف عن الارتباط الوثيق بين الداروينية والفلسفات الدموية. وقد ترجمت بعض كتبه الى الانكليزية والالمانية والفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والالبانية والعربية والبولندية والروسية والاندونيسية والتركمانية والبوسنية والتترية والاوردية والمالوية وطبعت في تلك البلدان. وكتب هارون يحيى تخاطب الجميع وتناسب كل الناس المسلمين منهم وغير المسلمين، بغض النظر عن اعمارهم واعراقهم وجنسياتهم، لانها كتب تتمحور حول هدف واحد هو فتح مدارك الناس من خلال تقديم ايات وجود الله «الأزلي والأبدي والقادر على كل شيء» في الافاق من حولهم.

بسم الله الرحمن الرحيم



إلى القارئ

السبب وراء تخصيص فصل خاص لانهيار النظرية الداروينية هو أن هذه النظرية تشكل القاعدة التي يعتمد عليها كل الفلاسفة الملحدين. فمنذ أن أنكرت الداروينية حقيقة الخلق، وبالتالي حقيقة وجود الله، تخلى الكثيرون عن أديانهم أو وقعوا في التشكيك بوجود الخالق خلال المئة والأربعين سنة الأخيرة. لذلك يعتبر دحض هذه النظرية واجباً يحتمه علينا الدين، وتقع مسؤوليته على كل منا. قد لا تسنح الفرصة للقارئ أن يقرأ أكثر من كتاب من كتبنا، لذلك ارتأينا أن نخصص فصلاً نلخص فيه هذا الموضوع.

تم شرح جميع الموضوعات الإيمانية التي تناولتها كل هذه الكتب على ضوء الآيات القرآنية وهي تدعو الناس إلى كلام الله والعيش مع معانيه. شرحت كل الموضوعات التي تتعلق بالآيات القرآنية بطريقة لا تدع مكاناً للشك أو التساؤل في ذهن القارئ من خلال الأسلوب السلس والبسيط الذي اعتمده الكاتب في كتبه يمكن للقرّاء في جميع الطبقات الاجتماعية والمستويات التعليمية أن تستفيد منها وتفهمها. هذا الأسلوب الروائي البسيط يمكّن القارئ من قراءة الكتاب في جلسة واحدة، حتى أولئك الذين يرفضون الأمور الروحانية ولا يعتقدون بها، تأثروا بالحقائق التي احتوتها هذه الكتب ولم يتمكنوا من إخفاء اقتناعهم بها.

يمكن للقارئ أن يقرأ هذا الكتاب وغيره من كتب المؤلف بشكل منفرد أو يتناوله من خلال مناقشات جماعية. أما أولئك الذين يرغبون في الاستفادة منه فسيجدون المناقشة مفيدة جداً إذ إنهم سيتمكنون من الإدلاء بانطباعاتهم والتحدث عن تجاربهم إلى الآخرين.

إضافة إلى أن المساهمة في قراءة وعرض هذه الكتب التي كتبت لوجه الله يعتبر خدمة للدين . عرضت الحقائق في هذه الكتب بأسلوب غاية في الإقناع، لذلك نقول للذين يريدون نقل الدين إلى الآخرين: إن هذه الكتب تقدم لهم عوناً كبيراً.

من المفيد للقارئ أن يطلع على نماذج من هذه الكتب الموجودة في نهاية الكتاب، ليرى التنوع الذي تعرضه هذه المصادر الغنية بالمواد الدينية الممتعة والمفيدة.

لن تجد في هذا الكتاب كما في غيره من الكتب، وجهات نظر شخصية للكاتب أو تعليقات تعتمد على كتب التشكيك، أو أسلوب غامض في عرض موضوعات مغرضة أو عروض يائسة تثير الشكوك وتؤدي إلى انحراف في التفكير.

الأمم البائدة

ترجمة :

ميسون نهلوي

مراجعة :

اورخان محمد علي

هارون يحيى

حول المؤلف

ولد الكاتب الذي يكتب تحت الاسم المستعار هارون يحيى في أنقرة عام 1956، بعد أن أنهى تعليمه الابتدائي والثانوي في أنقرة، درس الآداب في جامعة ميمار سنان في جامعة استنبول. وفي الثمانينيات بدأ بإصدار كتبه السياسية والدينية . هارون يحيى كاتب مشهور بكتاباته التي تدحض الداروينية وتعرض لعلاقاتها المباشرة مع الإيديولوجيات الدموية المدمرة.

يتكون الاسم القلمي أو المستعار، من اسمي "هارون" و"يحيى" في ذكرى موقرة للنبيَّين اللَّذَين حاربا الكفر والإلحاد. بينما يظهر الخاتم النبوي على الغلاف كرمز لارتباط المعاني التي تحتويها هذه الكتب بمضمون هذا الخاتم. يشير الخاتم النبوي إلى أن القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، وأن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين. وفي ضوء القرآن والسنة وضع الكاتب هدفه في نسف الأسس الإلحادية والشركية وإبطال كل المزاعم التي تقوم عليها الحركات المعادية للدين، لتكون له كلمة الحق الأخيرة. ويعتبرهذا الخاتم الذي مهر به كتبه بمثابة إعلان عن أهدافه هذه.

تدور جميع كتب المؤلف حول هدف واحد وهو نقل الرسالة القرآنية إلى الناس، وتشجيعهم على الإيمان بالله والتفكر بالموضوعات الإيمانية والوجود الإلهي واليوم الآخر.

تتمتع كتب هارون يحيى بشعبية كبيرة لشريحة واسعة من القراء تمتد من الهند إلى أمريكا، ومن إنكلترا إلى أندونيسيا وبولندا والبوسنة والبرازيل وإسبانيا؛ وقد ترجمت بعض كتبه إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانية والبرتغالية والأردية والعربية والألبانية والروسية والأندونيسية.

لقد أثبتت هذه الكتب فائدتها في دعوة غير المؤمنين إلى الإيمان بالله، وتقوية إيمان المؤمنين، فالأسلوب السهل والمقنع الذي تتمتع به هذه الكتب يحقق نتائجاً مضمونة في التأثير السريع والعميق على القارئ. من المستحيل على أي قارئ يقرأ هذه الكتب ويفكر بمحتواها بشكل جدي أن يبقى معتنقاً لأي نوع من أنواع الفلسفة المادية. ولو بقي أحد يحمل لواء الدفاع عنها، فسيكون ذلك من منطلق عاطفي بحت، لأن هذه الكتب تنسف تلك الفلسفات من أساسها. إن جميع الإيديولوجيات التي تقول بنكران وجود الله قد دُحضت اليوم والفضل يعود إلى كتب هارون يحيى.

لا شك أن هذه الخصائص مستمدة من حكمة القرآن ووضوحه؛ وهدف الكاتب من وراء نشر هذه الكتب هو خدمة أولئك الذين يبحثون عن الطريق الصحيح للوصول إلى الله، وليس تحقيق السمعة أو الشهرة، علاوة على أنه لا يوجد هدف مادي من وراء نشر كتبه هذه.

وعلى ضوء هذه الحقائق، فإن الذين يشجعون الآخرين على قراءة هذه الكتب، التي تفتح أعينهم وقلوبهم وترشدهم إلى طريق العبودية لله، يقدمون خدمة لا تقدر بثمن.

من جهة أخرى، يعتبر تناقل الكتب التي تخلق نوعاً من التشويش في ذهن القارئ وتقود الإنسان إلى فوضى إيديولوجية، ولا تؤثر في إزاحة الشكوك من قلوب الناس، مضيعة للوقت والجهد. أما هذه الكتب فمن الواضح أنها لم تكن لتترك هذا الأثر الكبير على القارئ لو كانت تركز على القوة الأدبية للكاتب أكثر من الهدف السامي الذي يسعى إليه، ومن يشك بذلك يمكنه أن يرى أن الهدف الوحيد لكتب هارون يحيى هو هزيمة الكفر وتكريس القيم الإنسانية.

لا بد من الإشارة إلى أن الحالة السيئة والصراعات التي يعيشها العالم الإسلامي في يومنا هذا ليست إلا نتيجة الابتعاد عن دين الله الحنيف والتوجه نحو الإيديولوجيات الكافرة، وهذا لن ينتهي إلا بالعودة إلى منهج الإيمان والتخلي عن تلك المناهج المضللة، والتوجه إلى القيم والشرائع القرآنية التي عرضها لنا خالق الكون لتكون لنا دستوراً. وبالنظر إلى حالة العالم المتردية والتي تسير به نحو هاوية الفساد والدمار، هناك واجب لا بد من أدائه وإلا... قد لا نصل في الوقت المناسب.

لا نبالغ إذا قلنا: إن مجموعة هارون يحيى قد أخذت على عاتقها هذا الدور القائد، وبعون الله ستكون هذه الكتب الوسيلة التي ستحقق شعوب القرن العشرين من خلالها السلام والعدل والسعادة التي وعد بها القرآن الكريم.

تتضمن أعمال الكاتب: النظام الماسوني الجديد، اليهودية والماسونية، الكوارث التي جرتها الداروينية على العالم، الشيوعية عند الأمبوش، الإيديولوجية الدموية للداروينية: الفاشية، الإسلام يرفض الإرهاب، اليد الخفية في البوسنة، وراء حوادث الإرهاب، وراء حوادث الهولوكوست، قيَم القرآن، الموضوعات 1 – 2 – 3، سلاح الشيطان: الرومانسية حقائق 1 – 2، الغرب يتجه إلى الله، خدعة التطور، أكاذيب التطور، ، الأمم البائدة، لأولي الألباب، انهيار نظرية التطور في عشرين سؤالاً، إجابات دقيقة على التطوريين، النبي موسى، النبي يوسف، العصر الذهبي، إعجاز الله في الألوان، العظمة في كل مكان، حقيقة حياة هذا العالم، القرآن طريق العلم، التصميم في الطبيعة، بذل النفس ونماذج رائعة من السلوك في عالم الحيوان، السرمدية قد بدأت فعلاً، ، خلق الكون، لا تتجاهل، الخلود وحقيقة القدر، معجزة الذرة، المعجزة في الخلية، معجزة الجهاز المناعي، المعجزة في العين، معجزة الخلق في النباتات، المعجزة في العنكبوت، المعجزة في البعوضة، المعجزة في نحل العسل، المعجزة في النملة، الأصل الحقيقي للحياة، الشعور في الخلية، سلسلة من المعجزات، بالعقل يُعرف الله، المعجزة الخضراء في التركيب الضوئي، المعجزة في البروتين، أسرار DNA .

وكتب الكاتب للأطفال: أيها الأطفال كذب داروين!، عالم الحيوان، عظمة السماوات، عالم أصدقائك الصغار، النمل، النحل يبني خليته بإتقان، بناة الجسر المهرة: القنادس.

وتتضمن أعمال الكاتب الأخرى التي تتناول موضوعات قرآنية: المفاهيم الأساسية في القرآن، القِيَم الأخلاقية في القرآن، فهم سريع للإيمان 1 – 2 – 3، هجر مجتمع الجاهلية، المأوى الحقيقي للمؤمنين: الجنة، القيم الروحانية في القرآن، علوم القرآن، الهجرة في سبيل الله، شخصية المنافقين في القرآن، أسرار المنافق، أسماء الله، تبليغ الرسالة والمجادلة في القرآن، المفاهيم الأساسية في القرآن، إجابات من القرآن، بعث النار، معركة الرسل، عدو الإنسان المُعلن: الشيطان، الوثنية، دين الجاهل، تكبر الشيطان، الصلاة في القرآن، أهمية الوعي في القرآن، يوم البعث، لا تنس أبداً، أحكام القرآن المنسية، شخصية الإنسان في مجتمع الجاهلية، أهمية الصبر في القرآن، معارف عامة من القرآن، حجج الكفر الواهية، الإيمان المتكامل، قبل أن تتوب، تقول رسلنا، رحمة المؤمنين، خشية الله، كابوس الكفر، النبي عيسى آتٍ، الجمال في الحياة في القرآن، مجموعة من جماليات الله 1 – 2 – 3، مدرسة يوسف، الافتراءات التي تعرض لها الإسلام عبر التاريخ، أهمية اتباع كلام الله، لماذا تخدع نفسك، كيف يفسر الكون القرآن، بعض أسرار القرآن، الله يتجلى في كل مكان، الصبر والعدل في القرآن، أولئك الذين يستمعون إلى القرآن.

مؤسسة الرسالة

تمهيد 9

مقدمة 11

الأمم السالفة 11

الفصل الأول 15

طوفان نوح 15

الفصل الثاني 40

حياة النبي إبراهيم عليه السلام 40

الفصل الثالث 47

قوم لوط والمدينة التي قُلبت رأسا على عقب 47

الفصل الرابع 70

قوم عاد وأوبار، "جزيرة الرمال" 70

الفصل الخامس..86

ثمــود...86

الفصل السادس..94

فرعون الغريق 94

الفصل السابع 115

قوم سبأ وسيل العرم 115

الفصل الثامن 126

النبي سليمان(ع) وملكة سبأ.........................126

الفصل التاسع 131

أصحاب الكهف..131

الخـاتمـة...140

مغالطات نظرية التطور 143

الهوامش 158

تمهيد

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيْدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوآ أَنْفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِيْ يَدْعُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مِنْ شَيءٍ لَمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَازَادُوْهُمْ غَيْرَ تَتْبِيْبٍ ﴾ هود: 100-101.

خلق الله الإنسان ومنحه صبغة روحانية وجسمانية، وسخر له الأرض ليسير فيها ضمن نهج محدد، ثم يتوفاه ليعود إليه من جديد، خلق الله الإنسان وهو أعلم بما خلق ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيْفُ الخَبِيْرُ** ﴾ الملك: 14 علمه ووفر له كل ما يحتاجه، لذلك كانت الغاية الحقيقية الأولى التي يعيش من أجلها الإنسان هي عبادة الله وتمجيده والالتجاء إليه، وللسبب نفسه كانت الرسالة الخالصة، والوحي الإلهي الذي تبلغته البشرية عن طريق الرسل عليهم السلام، هي الهداية المطلقة للإنسان.

القرآن هو آخر الكتب السماوية ووحيه الذي لم يعبث به أي تغيير او تحريف .

ولهذا نحن مسؤولون عن اتخاذه كمنهج ثابت نلتزم بأحكامه بكل تفاصيلها، فهو السبيل الوحيد للخلاص في الدنيا والآخرة، وبالتالي نحن معنيون بالبحث في مضامين القرآن والتمعن فيما يرويه لنا بدقة، يخبرنا الله عز وجل في القرآن أن الهدف من وراء الوحي القرآني هداية الناس إلى التفكر: ﴿ **هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوآ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُو الأَلْبَابِ** ﴾ إبراهيم: 52.

من المؤكد أن قصص الغابرين التي تشغل حيزاً كبيراً من القرآن هي من المواضيع القرآنية المهمة التي ينبغي أن نتأملها ونتفكر فيها، وهؤلاء الغابرون هم في معظمهم أقوام كذبوا الرسل الذين جاؤوهم بالرسالة، بل وناصبوهم العداء أيضاً، وبسبب عنادهم وتكبرهم استحقوا العقاب الإلهي فأُزيلوا من على وجه الأرض.

أخبرنا القرآن أن حالات التدمير هذه إنْ هي إلا عبرة للأمم التالية والأجيال القابلة، ونجد هذا في الآية 66 من سورة البقرة التي وردت تماماً بعد وصف العقاب الذي نزل على مجموعة من اليهود الذين عصوا الله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

سنستعرض في هذا الكتاب قصص بعض الأمم السالفة التي هلكت بسبب عصيانها لله عز وجل.

السبب الثاني لما نقوم به من تأمل لأحداث الدمار التي لحقت بتلك الأمم هو عرض المظاهر الخارجية للآيات القرآنية التي تذكر هذه الأحداث في عالمنا الذي نعيش فيه وإبراز صدق القرآن الكريم، فقد أخبرنا الله في كتابه العزيز أن آياته ظاهرة في العالم ويمكن مشاهدتها ؛ يقول في سورة النمل الآية الثالثة والتسعين: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

إن معرفة هذه الآيات وتحديدها لهو إحدى الطرق الأساسية التي تقود إلى الإيمان.

يمكن القول: إن معظم أحداث الدمار التي رواها لنا القرآن الكريم قد أصبحت ظاهرة وبادية للعيان وأمكن تحديدها، يعود الفضل في ذلك إلى الكشوف والدراسات الأثرية . في هذه الدراسة سنتعرض إلى آثار بعض حالات الدمار التي ذكرها القرآن الكريم (لاحظ أن بعضاً من الأمم المذكورة في القرآن لم يتم تضمينها في هذا الكتاب؛ لأن القرآن الكريم لم يعرض لزمانها ولا لمكانها، وإنما اقتصر ذكرها على عصيان القوم لله ورسله، وللدمار الذي حل بهم نتيجة لضلالهم، وهذا كان داعياً للناس لأخذ العظة والعبرة من هذه الأحداث).

وهدفنا هنا هو عرض هذه العقوبات التي نزلت في هذه الأحداث أمام الأعين لتكون عبرة لمن أعتبر

مقدمة

الأمم السالفة

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيْمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوآ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ التوبة: 70.

منذ بَدء الخليقة والإنسان يتلقى رسالة ربه عن طريق الرسل الذين يبعثهم الله إليه، بعض الأمم قبلت هذه الرسالة، بينما رفضتها أخرى، وفي بعض الأحيان يقبلها قلة من القوم فيتبعون رسولهم، بينما ترفضها الأكثرية.

إلا أن هذه الأكثرية لا تكتفي بتكذيب الرسل، وإنما تتعرض لهم بالإيذاء والقذف، وغالباً ما تتهمهم بالجنون والكذب والسحر والغرور، حتى إن زعماء بعض الأمم يحاولون قتلهم أو التخلص منهم.

ولم يكن مطلب هؤلاء الرسل من قومهم ليتعدى الإيمان بالله وطاعته، فهم لا يسألون مالاً ولا عطاء دنيوياً، كما أنهم لم يكرهوا قومهم على الاستجابة لهم، ما فعلوه هو الدعوة إلى دين الحق ، وإلى طريق جديد يبدؤون فيه مع أتباعهم حياة مختلفة بعيداً عن ذلك المجتمع الضال.

وتعكس لنا قصة شعيب وقومه أصحاب مدين الذين أرسل إليهم، العلاقة التي أسلفنا ذكرها بين الرسول وبين المجتمع الذي أرسل إليه، وتبدو ردة فعل قوم شعيب على دعوته، التي دعاهم فيها إلى الإيمان بالله والعدل في الميزان الذي كانوا مشهورين بتطفيفه، والطريقة التي

انتهوا بها، ممتعة من خلال السرد القرآني:

﴿وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيْزَانَ إِنِّيْ أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإِنِّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَومٍ مُّحِيْطٍ* وَيَا قَومِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيْزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءهمْ وَلا تَعْثَوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِيْنَ * بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيْظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَّفْعَلَ فِي أَمْوالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيْدُ * قَالَ يَا قَومِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّيْ وَرَزَقَنِيْ مِنهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيْدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنهُ إِنْ أُرِيْدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيْقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْهِ أُنِيْبُ * وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيْبَكُمْ مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيْدٍ * واسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوآ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيْمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيْراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِيْنَا ضَعِيْفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيْزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرآءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيْطٌ * وَيَا قَومِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيْهِ عَذَابٌ يُخْزِيْهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيْبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّينَا شُعَيْباً وَالَّذِيْنَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِم جَاثِمِيْنَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوا فِيْهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ هود: 84– 95.

تواصوا "بِرَجْمِ شعيب" الذي لم يكن له ذنب سوى أن دعاهم إلى الخير، فأخذهم الله بعقابه وأبادهم كما سردت لنا الآيات، إلا أن قوم شعيب ليسوا هم المثال الوحيد، بل على العكس، فكما ورد في السياق القرآني على لسان شعيب وهو يخاطب قومه أن أمماً عديدة سبقت أهل مدين قد بادت، وكذلك أمم كثيرة جاءت بعدهم دمرها الله وأباد أهلها.

نقوم في الصفحات الآتية بتقديم وصف للمجتمعات البائدة التي أتينا على ذكرها وآثارها، ورد في القرآن الحكيم وصف هذه الأمم بالتفصيل، حيث تدعو الآيات الناس ليتفكروا فيها ويحذروا من العاقبة التي لاقاها هؤلاء.

هنا يلفت القرآن انتباهنا بشكل خاص إلى أن الغالبية العظمى من هذه الأقوام كانت على درجة عالية من الحضارة والرقي، يمكن أن نستوضح هذه الخاصية التي تميز الأمم البائدة من قوله تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي البِلاَدِ هَلْ مِنْ مَّحِيْصٍ﴾ ق: 36.

في الآية السابقة يمكن أن نستنبط صفتين لهؤلاء الأقوام، الأولى: هي أنهم كانوا شديدي البأس، وهذا يعني أنهم كانوا يمتلكون أنظمة عسكرية قوية ، وأنهم سيطروا على الأرض التي أقاموا فيها بالقوة

. الصفة الأخرى: هي أن تلك الأمم كانت قد أنشأت مدناً كبيرة تسترعي الأنظار بفنها المعماري.

غني عن الذكر أن هاتين الصفتين موجودتان في الحضارة الحديثة التي بنت عالماً حضارياً مزدهراً من خلال التقنيات والعلوم المتطورة، وأنشأت دولاً مركزية ومدناً كبيرة، وهي مع ذلك تنكر وجود الله وتتجاهله، ناسية أن كل ما هي عليه من تقدم وازدهار، لم يكن ليوجد إلا بقدرته، إلا أن الحضارات التي أقامتها تلك الأقوام البائدة لم تنجها من الدمار كما ذكرت الآيات الكريمة، لأنها كانت قائمة على نكران الذات الإلهية، إذن لن تختلف نهاية الحضارة الحديثة عن تلك طالما أنها تقوم على التكذيب والإفساد في الأرض.

لقد تم إثبات عدد لا يستهان به من حوادث الدمار التي أتى القرآن الكريم على ذكر بعضها، عن طريق الأبحاث الأثرية التي قام بها علماء العصر الحديث، هذه الاكتشافات التي تبرهن بشكل قطعي على وقوع تلك الأحداث التي رواها لنا القرآن الكريم، تثبت أنه لا بد وأن تكون هذه الكوارث قد أُنذر بها مسبقاً، كما صورت في القصص القرآني مرات ومرات، ويأمرنا الله في آياته:

﴿ قُلْ سِيْرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِيْنَ﴾ الأنعام: 11 .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القُرَى أَفَلَمْ يَسِيْرُوا فِي الأَرْضِ

فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوآ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيْثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيْقَ الَّذِيْ بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدَىً وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يوسف: 109—111.

هناك أمثلة من الأمم السالفة عن أقوام وُهِبوا الذكاء والعقل إلا أنهم دُمِّروا بسبب إعراضهم عن الله وعصيانهم لأوامره، وهذه الأمثلة تكشف لنا عن مدى ضعف الإنسان وعجزه أمام خالقه. في الصفحات التالية سنتأمل هذه النماذج من خلال التسلسل التاريخي والزمني.

الفصل الأول

طوفان نوح

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَومِهِ فَلَبِثَ فِيْهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِيْنَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾
العنكبوت: 14.

يحكي لنا القرآن الكريم قصة طوفان نوح، الذي روت عنه معظم الثقافات العالمية بشكل واسع، وتتحدث آيات عديدة بالتفصيل عن موقف قوم نوح منه ، فتصور إعراضهم عنه، واستهتارهم به واستهزاءهم بنصائحه وتحذيراته وكيف حدث الطُّوفان.

أرسل الله نوحاً لينذر قومه الذين ضلوا وابتعدوا عن آيات الله واتخذوا معه شركاء، وليستحثهم على عبادته وحده والتخلي عن عصيانهم وعنادهم، قدم نوح النصح لقومه مرات ومرات وطلب منهم أن يمتثلوا لأوامر الله، وأنذرهم عقابه، ولكنهم ظلوا على عنادهم ورفضهم له، وظلوا يعبدون مع الله شركاء، وتعرض لنا الآيات في سورة المؤمنون تطور الوضع:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَومِهِ فَقَالَ يَا قَومِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ * فَقَالَ المَلأُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ قَومِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيْدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِيْنَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِيْنٍ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ المؤمنون: 23—26.

وكما تشير الآيات فقد حاول زعماء القوم أن يتهموا النبي نوحاً بمحاولته التفضل والاستعلاء عليهم ، أي بالبحث عن المنزلة والقيادة والثروة، حاولوا أن يثبتوا أنه **﴿رَجُلٌ بِهِ**

جِنَّةٌ﴾ وقرروا أن يتحملوه لبعض الوقت ويبقوه تحت الضغط.

بناء على ذلك أخبر الله تعالى نبيه نوحاً أنه سيعاقب الكافرين من قومه بإغراقهم وينجي المؤمنين.

وعندما حان وقت الطُّوفان تفجرت ينابيع الأرض والتقت مع الأمطار الغزيرة ليحصل الطُّوفان العظيم. وقال الله عز وجل لنوح: ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ المؤمنون: 27 لقد غرق كل من كان على تلك الأرض بما فيهم ابن نوح عليه السلام الذي ظن أنه يمكن أن يجد ملجأ من الطوفان في أحد الجبال القريبة، أصاب الطُّوفان القوم بأجمعهم، باستثناء أولئك الذين حملهم نوح على ظهر السفينة، وعندما جفت الأرض ﴿وَغِيْضَ الْمَاءُ﴾ هود: 44 وانتهى الطُّوفان، استوت السفينة على الجُوْدِيِّ – أي على مرتفع من الأرض– كما يخبرنا القرآن الكريم.

تشير الدراسات التاريخية والأثرية والجيولوجية إلى أن هذا الحدث قد وقع تماماً كما رواه القرآن الكريم، فقد وردت قصته في الكثير من السجلات التاريخية ومنقولات الحضارات القديمة، بالرغم من اختلاف أسماء الأشخاص والأماكن، إن "كل ما حدث للقوم الضالين" يعرض على إنسان هذا العصر كإنذار ووعيد.

بعيداً عن العهد القديم والعهد الجديد، تحكي السجلات السومرية والبابلية والآشورية والأساطير اليونانية وأساطير الشاتاباثا والبراهما والماهاباهارتا الهندية، وقَصص ويلز والأساطير الليتوانية وحتى القَصص الصينية القديمة قصة الطُّوفان هذه.

ولكن كيف يمكن أن تجتمع هذه المعلومات المفصلة والمتصلة بموضوع واحد من هذه الأ راضي المتباعدة فيما بينها جغرافياً وثقافياً، والبعيدة أيضا عن مكان الطُّوفان؟

الجواب واضح: إن وجود السرد القصصي لنفس الحادث في سجلات هذه الحضارات المختلفة تماماً، والتي لا توجد بينها أي حلقات اتصال، لهو برهان أكيد على أن هذه المجموعة من الأقوام قد تلقت العلم عن طريق مصدر إلهي واحد، لقد أخبر العديد من الرسل الذين بعثوا إلى حضارات مختلفة على مر العصور، أقوامهم بقصة الطُّوفان الذي يعتبر من أكبر كوارث البشرية تاريخياً، وكان إخبارهم هذا من باب ضرب الأمثال، وهكذا انتشرت قصة الطُّوفان

في مختلف الحضارات.

وبالرغم من أن هذه القصة قد تناقلتها عدة ثقافات ومصادر دينية، إلا أن قصة الطُّوفان والنبي نوح عليه السلام قد أصابها الكثير من التشويه والتحريف بعيداً عن المصدر الأصلي لها بسبب زيف المصادر، أو النقل المغلوط، أو حتى يمكن أن نقول: بسبب النوايا السيئة، لقد كشفت الأبحاث أن الرواية الوحيدة المتماسكة من بين جميع الروايات التي تناولت قصة الطُّوفان، والتي تقوم أساساً على نفس الحدث مع العديد من الاختلافات، هي تلك التي يسردها القرآن الكريم.

الرسول نوح عليه السلام والطُّوفان في القرآن الكريم

ذُكِرَ طُوفان نوح عليه السلام في العديد من آيات القرآن الكريم، نسرد فيما يأتي الآيات حسب تسلسل الأحداث:

النبي نوح عليه السلام يدعو قومه إلى دين الحق

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ﴾ الأعراف: 59.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِيْنٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيْعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِيْنَ * فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيْعُون ﴾ الشعراء: 106—110.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَومِهِ فَقَالَ يا قَومِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ المؤمنون: 23.

النبي نوح عليه السلام ينذر قومه عقاب الله

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَومِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَومَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ﴾ نوح: 1.

يقول نوح: **﴿ فَسَوفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيْهِ عَذَابٌ يُخْزِيْهِ وَيحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيْمٌ﴾** هود: 39.

يقول نوح: ﴿ **أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ** ﴾ هود: 26.

تكذيب قوم نوح

﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِيْنٍ** ﴾ الأعراف: 60.

﴿ **قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ** ﴾ هود: 32

.

﴿ **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُم كَمَا تَسْخَرُونَ** ﴾ هود: 38.

﴿ **فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ قَومِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِيْنَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِيْنٍ** ﴾ المؤمنون: 24—25 .

﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ** ﴾ القمر: 9 .

استخفافهم بالذين اتبعوا نوحاً عليه السلام

﴿ **فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ قَومِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِيْنَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِيْنَ** ﴾ هود: 27.

﴿ **قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِيْنَ * إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ** ﴾ الشعراء: 111—115 .

توصية الله عز وجل لنوح أن لا يحزن

﴿ **وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤمِنَ مِنْ قَومِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ **هود**: 36.

دعاء نوح عليه السلام

﴿**فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ**﴾ الشعراء: 118.

﴿**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ**﴾ القمر: 10.

﴿**قَالَ رَبِّي إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِي إِلاَّ فِرَاراً**﴾ نوح: 5—6.

﴿**قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ**﴾ المؤمنون: 26.

﴿**وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيْبُونَ**﴾ الصافات: 75.

بناء السفينة

﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِيْنَ ظَلَمُوآ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ**﴾ هود: 37.

هلاك قوم نوح عليه السلام بالطوفان

﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِيْنَ مَعَهُ فِي الفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوماً عَمِيْنَ**﴾ الأعراف: 64.

﴿**ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ البَاقِيْنَ**﴾ الشعراء: 120 .

﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَومِهِ فَلَبِثَ فِيْهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِيْنَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ العنكبوت: 14.

﴿**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ ومَنْ مَعَهُ فِي الفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وأَغْرَقْنَا الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِيْنَ**﴾ يونس: 73.

هلاك ابن نوح عليه السلام

يحكي لنا القرآن الحوار الذين دار بين نوح وابنه في المراحل المبكرة من الطُّوفان:

﴿**وَهِيَ تَجْرِيْ بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَّعَ الكَافِرِيْنَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الماءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ**

اللهِ إِلاَّ مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِيْنَ﴾ هود: 42—43.

نجاة المؤمنين من الطُّوفان

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِيْنَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِيْنَ﴾ العنكبوت: 15.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ الشعراء: 119.

الطبيعة المادية للطُّوفان

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ القمر: 11—13.

﴿حَتَّى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيْهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيْلٌ * وقَالَ ارْكَبُوا فِيْهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيْمٌ﴾ هود: 40—41.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيْهَا مِنْ كُلٍّ زَوجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِيْنَ ظَلَمُوآ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ المؤمنون: 27.

استواء السفينة على مرتفع من الأرض

﴿وَقِيْلَ يَآ أَرْضُ ابْلَعِيْ مَآءَكِ وَيَا سَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيْضَ المَآءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيْلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ﴾ هود: 44.

الجانب التوجيهي لحادثة الطُّوفان

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى المَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ الحاقة: 11—12.

ثناء الله على نوح عليه السلام

﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِيْنَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِيْنَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِيْنَ﴾
الصافات: ٧٩–٨١.

هل كان الطُّوفان كارثة عالمية أم محلية؟

يدعم أولئك الذين ينكرون وقوع طُوفان نوح موقفهم في هذا الإنكار بالتأكيد على استحالة وقوع طُوفان عالمي شامل، كما أن الغاية من إنكارهم لحدوث أي نوع من الطُّوفان موجه لتكذيب القرآن وروايته

ان قصة الطوفان الواردة في القران الكريم –الذي نجا من التحريف ومن التبديل – وردت بشكل مختلف عن أساطير الطوفان الواردة في التوراة وفي العديد من ثقافات الأقوام الأخرى ، تقول أسفار موسى الخمسة (وهي الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم) : إن الطُّوفان كان عالمياً وإنه غطى كل العالم، إلا أن القرآن لم يشر إلى شيء كهذا، بل على العكس تدل الآيات التي تتحدث عنه على أنه كان طُوفاناً غطى منطقة معينة ولم يشمل كل العالم، وأن هذا الطُّوفان أغرق فقط قوم نوح الذين أنذرهم نبيُّهم فعصوه فاستحقوا عقاب الله.

عندما تتفحص روايات العهد القديم والقرآن الكريم تجد هذا الاختلاف بيّناً، يصف العهد القديم (الذي كان عرضة للكثير من الإضافات والتعديلات خلال تاريخه فأصبح لا يمكن اعتماده كوحي نقي)، بداية الطُّوفان كما يأتي:

"٥ ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم،٦ فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، ٧ فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأني حزنت أني عملتهم، ٨ وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب."

أما في القرآن فتوضح الآيات أن قوم نوح فقط هم الذين أهلكوا وليس كل العالم، تماماً كما أُرْسِلَ هود لعاد فقط، وصالح إلى ثمود، وكل الرسل التي أرسلت قبل محمد عليه الصلاة

والسلام أرسلت لأقوامها خاصة، كذلك أُرْسِلَ نوح إلى قومه فقط، وكان الطُّوفان مخصصاً لهلاك هؤلاء القوم بالذات دون سواهم .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىَ قَومِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ * أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَومٍ أَلِيْمٍ﴾ هود: 25—26 .

إن القوم الذين أهلكوا هم أولئك الذين استخفوا برسالة النبي وأصروا على عصيانهم لله، والآيات الآتية تكفي لبيان هذا:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِيْنَ مَعَهُ فِي الفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوماً عَمِيْنَ﴾ الأعراف: 64.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ ومَنْ مَعَهُ فِي الفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وأَغْرَقْنَا الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِيْنَ﴾ يونس: 73.

كما يخبرنا القرآن أن الله عز وجل لا يهلك قوماً حتى يبعث فيهم رسولاً، فالهلاك يقع فقط عندما يكون النذير بين القوم، يقول عز وجل في سورة القصص:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ القصص: 59.

لا يهلك الله قوماً لم يبعث فيهم رسولاً، ونوح عليه السلام جاء إلى قومه نذيراً ، لذلك لم يهلك الله الأقوام الأخرى التي لم يُبْعَثْ فيها نذير في زمن نوح عليه السلام.

ومن هذه الآيات يمكن أن نتأكد من أن الطُّوفان لم يكن عالمياً وإنما كان إقليمياً، لقد أظهرت الحفريات الأثرية التي أجريت في المنطقة الأثرية التي يفترض أنها منطقة الطُّوفان والتي سنتفحصها لاحقاً، أن الطُّوفان لم يكن شاملاً أغرق العالم، وإنما كان كارثة كبيرة أثرت على جزء من منطقة وادي الرافدين.

هل تم اصطحاب جميع الحيوانات على ظهر السفينة؟

تؤمن تفاسير الإنجيل أن نوحاً عليه السلام قد اصطحب معه في السفينة جميع أنواع الحيوانات الموجودة على سطح الأرض، وهكذا نجت الحيوانات من الانقراض، بفضل نوح (ع). حسب هذه الرواية فإن كل أنواع الدواب التي كانت على سطح الأرض قد جمعت على سطح السفينة.

المدافعون عن هذا المعتقد لا بد أن يواجهوا صعوبات حقيقية من نواح عديدة تعترض نظريتهم،فالأسئلة التي تطرح نفسها: كيف كانت تُطعم الحيوانات المحمولة في السفينة؟ وكيف تم عزلها عن بعضها وأين كانت تنام؟ الجواب عن هذا غير ممكن. سؤال آخر لا يقل أهمية: كيف أمكن جمع الحيوانات من مختلف القارات: الثدييات القطبية، الكنغر الأسترالي والثور الأمريكي؟ ويتبع ذلك سؤال آخر: كيف أمكن الإمساك بالحيوانات السامة مثل الأفاعي والعقارب، والحيوانات المفترسة؟ وكيف أمكن عزلها عن بيئتها الطبيعية إلى أن انتهى الطُّوفان؟

هذه أسئلة يواجهها العهد القديم، في القرآن الكريم لا توجد آيات تفيد بأن كل أنواع الحيوانات الموجودة على الأرض قد تم اصطحابها في السفينة، كما لاحظنا سالفاً: حدث الطُّوفان في منطقة معينة، وبذلك تكون الحيوانات التي حُملت على ظهر السفينة هي تلك التي كانت تتواجد في منطقة قوم نوح(ع) بالذات.

ومع ذلك يبقى من المستحيل جمع كل أنواع الحيوانات التي كانت تعيش في تلك المنطقة، من الصعب على نوح والقلة التي كانت معه من المؤمنين هود: 40 أن يذهبوا في كل اتجاه ليجمعوا زوجاً من كل نوع من أنواع الحيوانات الموجودة في محيطهم، فمن غير المعقول أن يتمكنوا من جمع كل أنواع الحشرات، أو التفريق بين الأنثى منها و الذكر! لذلك كان الأقرب إلى التصديق أن يكون نوح عليه السلام قد قام بجمع الأنواع الأليفة و التي يسهل جمعها مثل الغنم والبقر والجمال والجياد وما شابه ذلك، لأن هذه الأنواع كانت هي الضرورية من أجل بناء حياة جديدة في منطقة فقدت كمية كبيرة من مواشيها بسبب الطُّوفان.

النقطة المهمة هنا هي: الحكمة الإلهية من أمر الله عز وجل لنوح عليه السلام باصطحاب زوجين من كل نوع، تتجلى هذه الحكمة في جمع الأنواع الضرورية لبناء حياة جديدة بعد الطُّوفان، وليس الحفاظ على الجنس الحيواني. وبما أن الطُّوفان لم يكن عالمياً، فإمكانية انقراض الجنس الحيواني لم يكن أمراً وارداً، فمن المحتمل جداً أن أنواع عديدة من حيوانات المناطق المجاورة قد أتت إلى المنطقة بعد انتهاء الطُّوفان. النقطة المهمة والأساسية في الموضوع إذاً هي بناء حياة جديدة بعد الطُّوفان في المنطقة، ومن أجل تحقيق هذا تم جمع الحيوانات.

إلى أي ارتفاع وصل الماء؟

موضوع آخر مثير للجدل في حادث الطُّوفان، وهو هل كان ارتفاع الماء كافياً لتغطية الجبال؟ يخبرنا القرآن أن السفينة في النهاية وبعد الطُّوفان، استوت على الجُودِيِّ، والجُودِيُّ عموماً هو اسم لجبل معين، إلا أن معناه باللغة العربية "المكان المرتفع"، لذلك علينا أن لا نَغْفُلَ أنه من الجائز أن يكون الجُودِيُّ الذي ذُكر في القرآن لا يشير إلى جبل بعينه، بل إلى أن السفينة قد استوت على مكان مرتفع من الأرض، كما أن هذا المعنى "للجُودِيِّ" قد يعني أن الماء قد وصل إلى مستوى معين، ولكنه لم يصل إلى مستوى قمة الجبل، يمكننا أن نرجح إذاً أن ماء الطُّوفان لم يغمر كل الأرض وكل الجبال كما هو مذكور في العهد القديم، وإنما غطى منطقة معينة.

منطقة طُوفان نوح (ع)

يفترض أن تكون وديان منطقة وادي الرافدين هي منطقة الطُّوفان، ففي تلك المنطقة قامت أقدم الحضارات التي عرفها التاريخ، بالإضافة إلى أن موقعها بين نهري دجلة والفرات يؤهلها لأن تكون منطقة الطُّوفان العظيم، فمن المحتمل أن يكون وجودُ هذين النهرين أحدَ العوامل المساعدة في حدوث الطُّوفان، حيث يمكن أن يكونا قد فاضا وأغرقا المنطقة.

السبب الآخر لاعتبار هذه المنطقة هي منطقة الطُّوفان هو سبب تاريخي: فقد وجدت في سجلات العديد من الحضارات التي تتابعت على المنطقة وثائق متعددة تتكلم عن طُوفان أغرق المنطقة في نفس الفترة الزمنية، لقد ارتأت الحضارات التي شهدت هلاك قوم نوح

ضرورة تسجيل هذا الحدث، كيف وقع وما أسفر عنه من نتائج، وهنا نجد أن معظم الأساطير التي تناقلت ما روته تلك الحضارات قد حددت موقع الطُّوفان في هذه المنطقة، وقد قدمت الكشوف الأثرية دعماً لهذه الأقوال، فأثبتت أن طُوفاناً كبيراً قد أتى على المنطقة، وكما سنرى في الصفحات المقبلة فقد انقطعت الحضارات لفترة من الزمن عن هذه المنطقة، ومن خلال الحفريات ظهرت آثار واضحة لهذه الكارثة الكبيرة التي حلَّت بها.

لقد كشفت الحفريات في منطقة وادي الرافدين أن المنطقة قد تعرضت للعديد من الكوارث نتيجة لفيضان كل من نهري دجلة والفرات، على سبيل المثال: أُطلق على إحدى سنوات عهد إيبيسين، حاكم مدينة أور الواقعة في جنوبي " وادي الرافدين " حوالي الألف الثاني قبل الميلاد، سنة "ما بعد الطُّوفان الذي أزال الحدود بين السماء والأرض".[1]

وفي عصر حمورابي البابلي، أي حوالي عام 1700 قبل الميلاد، هناك سنة يشار إليها "سنة ما قبل غرق مدينة إيشونا بطُوفان عارم".

في القرن العاشر قبل الميلاد، وفي عهد الحاكم "نبو موكين آبال" حدث طُوفان ضخم في مدينة بابل،[2] وبعد مجيء عيسى عليه السلام، أي في القرن الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر الميلادي تعرضت المنطقة إلى فيضانات كبيرة ، وفي القرن العشرين حصل الشيء ذاته في الأعوام 1925، 1930، 1954. [3] من الواضح أن هذه المنطقة كانت دائماً عرضة للفيضانات، ومن المحتمل جداً كما ذكر في القرآن، أن يكون طُوفان كبير قد عرض لهذه المنطقة وأهلك أمة برُمَّتها.

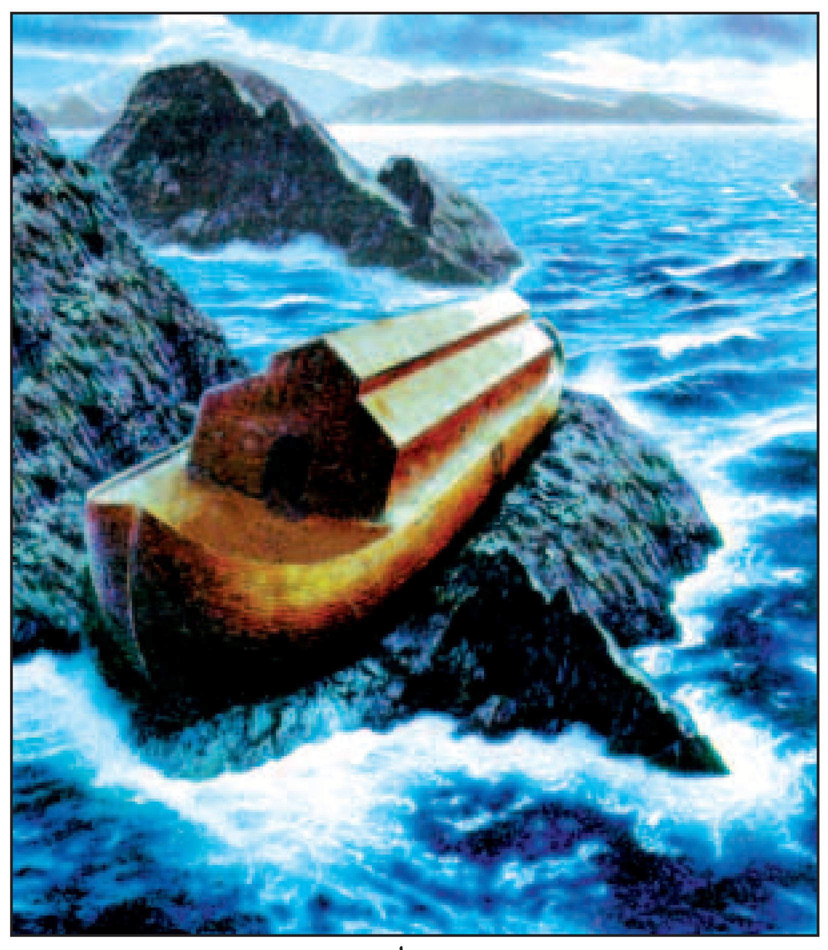
الدليل الأثري للطُّوفان

ليس مصادفة أن نأتي في أيامنا هذه على آثار أمم حدثنا القرآن عن دمارها، ويقدم لنا الدليل الأثري حقيقة تقول: إنّه كلما كان اختفاء القوم مفاجئاً كلما كانت إمكانية العثور على آثارهم وبقاياهم أكبر.

عندما يحدث اختفاء أمة من الأمم بشكل مفاجئ، وذلك غالباً ما يكون بسبب كارثة

طبيعية أو هجرة فجائية أو حربا ضروسه، فإن آثار هذه الأمم تكون محفوظة بشكل أفضل، ففي وقت قصير تدفن منازلهم وأدواتهم التي كانوا يستخدمونها في حياتهم اليومية تحت الأرض، وتبقى محفوظة لفترة طويلة بعيدة عن عبث الإنسان لتظهر فيما بعد لتعطي معلومات مهمة عن الماضي عندما تخرج إلى الضوء.

بهذه الطريقة تم الكشف عن الكثير من آثار طُوفان نوح في أيامنا هذه ، فبالرغم من حدوث الطُّوفان في القرن الثلاثين قبل الميلاد، فقد وضع هذا الطُّوفان نهاية سريعة لحضارة كاملة، لتقوم مقامها حضارة جديدة، وبذلك تم الاحتفاظ بآثاره لآلاف من السنين حتى يكون للعالمين نذيراً.



رسم يصور طُوفان نوح

تم تنفيذ عددٍ كبيرٍ من الحفريات في أثناء البحث عن مكان الطُّوفان الذي وقع في وادي الرافدين . عثر في أثناء الحفريات ـ والتي نفذت في المنطقة وغطت أربعة مدن رئيسة ـ على آثار طُوفان يعتبر طُوفاناً عارماً بشكل خاص، هذه المدن كانت أكبر المدن في ״ وادي الرافدين ״ وهي أور، إيريك، كيش، وشورباك.

وتدل كافة الحفريات على أن هذه المدن كانت محوراً لطُوفان عارم حدث في الألف الثالث قبل الميلاد.

ولنتناول أولاً الحفريات التي نفذت في مدينة أور:

تعود أقدم الآثار التي عثر عليها لإحدى الحضارات في أثناء الحفريات التي أجريت في مدينة أور، والتي يطلق عليها في يومنا هذا ״تل المقيّر״، إلى الألف السابع قبل الميلاد، وباعتبارها موطناً لإحدى الحضارات القديمة ، فقد كانت مدينة أور منطقة استيطان العديد من الحضارات التي تتالت عليها، وتدل الكشوف الأثرية لهذه المنطقة على أنها شهدت انقطاعاً حضارياً بسبب طُوفان عظيم، وأن حضارات أخرى ظهرت في ما بعد، قام ر.هـ. هول من المتحف البريطاني بالحفريات الأولى في هذه المنطقة، وحمل ليونارد وولي مسؤولية متابعة ما بدأه هول، فقام بالإشراف على الحفريات التي تم تنظيمها من قبل المتحف البريطاني وجامعة بنسلفانيا، استمرت الحفريات التي قام بها وولي، والتي كان لها دوي عالمي كبير منذ عام 1922 وحتى 1934، وكان منتصف الصحراء الواقعة بين بغداد والخليج العربي هو مسرح هذه الحفريات.

أول من أوجد مدينة أور هم قوم جاؤوا من شمال وادي الرافدين وأطلقوا على أنفسهم اسم ״العبيديين״. كان هدف الحفريات بادئ الأمر جمع معلومات عن هؤلاء القوم ، وصفت مجلة Reader's Digest حفريات وولي كما يأتي :

من شدة فرح ״ وولي״ باكتشاف ״مدافن ملوك أور״ ،أصاب قبور النبلاء السومريين الرائعة التي ظهرت عندما ضربت مجارف الأثريين ركاما بعمق خمسين قدما الى الجنوب من

المعبد ليجدوا صفا طويلاً مهيباً من القبور. بدت هذه القبور كنزاً حقيقياً، فقد كانت ممتلئة بالكؤوس الثمينة ،الأباريق والأواني الرائعة وأدوات المائدة البرونزية ،مصنوعات من الموزاييك،أحجار اللازورد، وقد أحاطت الفضة تلك الأجسام التي أصابها التفسخ. ظهرت قيثارات متكئة على الجدران. كتب في مذكراته ״كل هذا حدث في لحظة״وتابع :״وتابعت الحفريات التي أثبتت شكوكنا. فقد وجدنا مباشرة تحت أرض القبر الذي يعود الى أحد الملوك وضمن طبقة من الخشب المتفحم عدداً كبيراً من الألواح الطينية ،التي تحمل نقوشاً أقدم من تلك التي وجدت على القبور. ومن خلال طبيعة الكتابة الموجودة عليها قدر أنها تعود الى الألف الثالث قبل الميلاد. وهكذا تكون أقم من القبور بقرنين أو ثلاثة قرون״.

كلما تعمقت الحفريات كلما ظهرت المخلفات والمكتشفات الأثرية . كان هذا قبور ملوك مدينة اور . وقد عثر الباحثون في هذه القبور التي دفن فيها الملوك ونبلاء سومر على العديد من الكنوز الفنية الرائعة كالمغافر والسيوف وآلات الموسيقى أثارا فنية مصنوعة من الذهب ومن الأحجار الكريمة. كانت هناك أشياء أخرى أهم :القيود والسجلات التاريخية البارزة المضغوطة بتقنية عالية على ألواح طينية . كما عثر الباحثون في اور على كتابات تحمل نفس أسماء الموجودة في قائمة ملوك اور. بل وجدوا حتى أم المؤسس الأول للعائلة الملكية الأولى في اور. وتوصل ״وولي״ الى أن هذه القبور تعود الى ما قبل العائلة المالكة لاور. أي توصلوا الى نتيجة مفادها أن مدينة كبيرة كانت موجودة قبل مدينة اور.

بعد تدقيق هذه الآثار قرر ״وولي״ الاستمرار في الحفريات لأعماق أكثر تحت هذه القبور وتوغل العمال الى عمق بمقدار متر تحت اللبنات التي تحولت الى طين ،وبدأوا باستخراج الأواني والصحون ثم توقف كل شيء فجأة.

كتب״وولي״ :لم تعد هناك أواني ولا صحون ولا رقم طينية،بل مجرد طين صاف يجرفه الماء.

أستمر ״وولي״ في الحفريات ،وبعد اجتياز 2,5 م من طبقة من الطين الصافي ،أستمر الحفر لعمق أكثر وفجأة عثر العمال على آلات وأدوات مصنوعة من حجر الصوان تعود الى



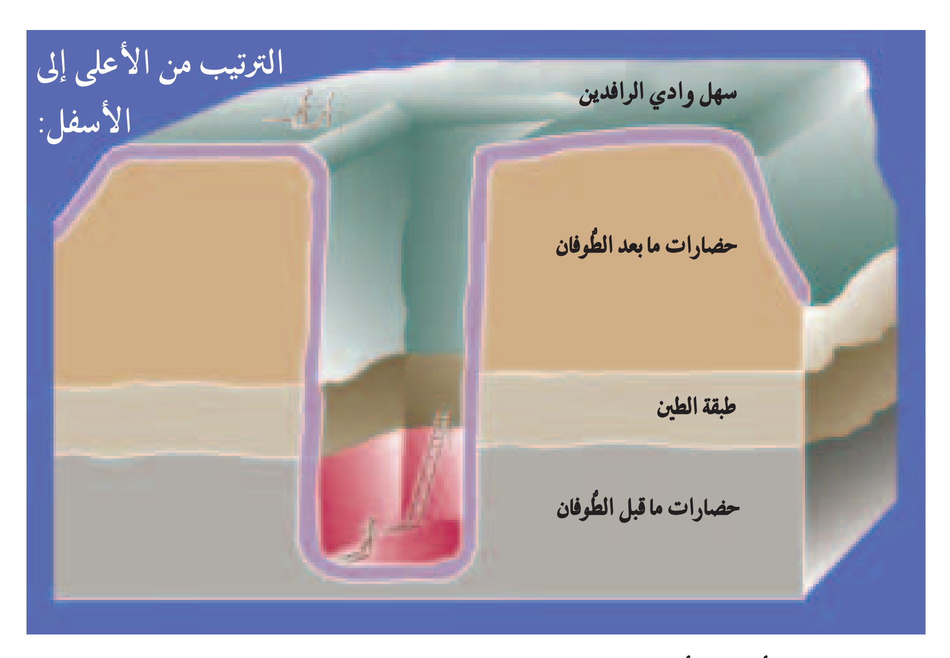
تفيد الاكتشافات الأثرية أن طُوفان نوح قد حدث في سهول وادي الرافدين . إذ كانت هذه السهول تتخذ شكلاً مختلفاً عما هي عليه اليوم.
يشير الخط الأحمر في الرسم الموضّح أعلاه إلى الحدود الحالية لهذه السهول، أما الجزء الكبير الذي يقع وراء هذا الخط الأحمر فقد كان يشكل جزءاً من البحر في ذلك الوقت.

أصحاب مدينة العصر الحجري الأخير .وبعد إتمام عمليات تنظيف الطين تبين وجود مدينة مدفونة في الأعماق .وكانت الآثار تدل على حصول طوفان كبير في هذه المنطقة. كما ان التحليلات المجهرية أشارت الى أن طبقة سميكة جدا من الصلصال النقي Fullers earth ،وهذا كان دليلاً على أن طوفاناً مريعاً حدثت وأزالت حضارة سومر. وهكذا التقت واتحدت أسطورة جلجامش مع قصة طوفان نوح في بئر محفور في سهل وادي الرافدي. [4]

كشف التحليل المجهري أن هذه الترسبات الضخمة من الطين تحت الهضبة عند أور

كانت نتيجة طُوفان عظيم ذهب بالحضارة السومرية القديمة، لقد اجتمعت ملحمة غلغامش مع قصة نوح في هذا الممر الذي حفر عميقاً تحت صحراء "وادي الرافدين" روى ماكس مالوان Max Mallowan أفكار ليونارد وولي Leonard Wolley القائم بهذه الحفريات هكذا: إن هذه الكتلة الضخمة من الغرين والتي تشكلت خلال شريحة زمنية واحدة، لا يمكن أن تكون إلا نتيجة لكارثة طُوفان عظيم، كما وصف وولي طبقة الطُّوفان التي تفصل مدينة أور السومرية عن مدينة "العبيد" التي اعتاد سكانها على استخدام الأواني المطلية، على أنها من آثار الطُّوفان العظيم.[5]

يبين هذا أن مدينة أور هي إحدى المناطق التي تأثرت بالطُّوفان العظيم، يشرح وورنر كيلر أهمية الحفريات التي ذكرناها آنفاً بقوله: "إن ظهور هذه المخلفات في الطبقة الطينية السفلى في الحفريات الأثرية يدل على حدوث طُوفان في المنطقة".[6]



كشفت الحفريات الأثرية التي أجراها السيد ليونارد وولي في سهول وادي الرافدين عن وجود طبقة من طين الصّلصَال بسمك 2,5 متراً. من المرجح أن تكون هذه الطبقة قد تشكلت من الكتل الصّلصَالية التي حُملت مع مياه الطُّوفان والتي لا يوجد مثلها في أنحاء العالم إلا تحت سهول وادي الرافدين؛ ويعطي هذا دليلاً هاماً يثبت أن الطُّوفان قد حدث فقط في سهول وادي الرافدين.

المدينة الثانية التي حملت آثار الطُّوفان العظيم هي ″كيش السومرية″ التي تعرف اليوم ″بتل الأحيمر″، وحسب المصادر السومرية القديمة، كانت هذه المنطقة مستقراً لأول سلالة حاكمة بعد الطُّوفان . [7]

كذلك الأمر بالنسبة لمدينة شورباك التي تقع في جنوبي من ″وادي الرافدين″ والتي تسمى اليوم ″بتل الفعرة″، حيث ظهرت فيها آثار الطُّوفان العظيم. قاد الحملة الأثرية في هذه المنطقة إيريك شميدت من جامعة بنسلفانيا ما بين عامي 1920– 1930، أظهرت هذه الحفريات ميلاد وازدهار مدينة قبل 2000–3000 سنة ق.م،وكانت آثار هذه المدينة واضحة وجلية في الطبقات المختلفة من الحفريات. ثلاث طبقات من المستوطنات تمتد من حقبة متأخرة منذ ما قبل التاريخ، وحتى السلالة الحاكمة الثالثة لمدينة أور (2112–2004 قبل الميلاد). كان أكثر المكتشفات وضوحاً أنقاض منازل مبنية بشكل متين مع ألواح سومرية تحمل سجلات إدارية وقوائم كلمات تشير إلى مجتمع متطور جداً ظهر عند نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.[8]

النقطة المهمة هنا هي: أن طُوفاناً عظيماً قد حدث في هذه المدينة ما بين (3000–2900) قبل الميلاد. وحسب رواية مالوان: وصل شميدت إلى عمق 3–4 أمتار تحت الأرض ليجد طبقة من التربة الصفراء (تشكلت نتيجة الطُّوفان). كانت هذه الطبقة المتشكلة من خليط من الطين والتراب أقربَ إلى المستوى المنبسط منها إلى الركام الترابي ... عرف شميدت هذه الطبقة المخلوطة من طين وتراب والتي تعتبر من بقايا عهد مملكة ″سيمدت نصر″ بوصفها ″رمال من أصل نهري″ وربطها مع طُوفان نوح.[9]

من خلال الحفريات في مدينة شورباك، ظهرت آثار طُوفان يعود تقريباً إلى ما بين (3000–2900) قبل الميلاد، من المحتمل إذاً أن تكون شورباك قد تعرضت لآثار الطُّوفان كغيرها من المدن . [10]

المدينة الأخيرة التي تأثرت بالطُّوفان هي مدينة إيريك، والتي تسمى اليوم ″تل الورقة″، وكغيرها من المدن ظهرت فيها طبقة من طين الطُّوفان، والتي تعود إلى ما بين (3000–2900) قبل الميلاد. [11]

وكما هو معروف، يقطع كل من نهري دجلة والفرات " وادي الرافدين " من الشمال إلى الجنوب، ويبدو أنه في أثناء حدوث الطُّوفان، فاض هذان النهران مع مصادر المياه الأخرى، والتقت مياه الأرض مع ماء السماء ليحدث الطُّوفان العظيم، يصف القرآن الكريم هذا الحدث:

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّمَآءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ القمر: 11—12.

عندما تدرس عوامل الطُّوفان الواحد تلو الآخر، تظهر على أنها ظاهرة طبيعية جداً، أما ما يجعله معجزة فهو حدوث هذه الظواهر كلها في آن واحد، وعقب إنذار نوح لقومه وتحذيره لهم من حدوث هذه الكارثة.

كشفت الدلائل التي خرجت بها الدراسات النهائية: أن منطقة الطُّوفان قد غطت مساحة 600 كم (طولاً) من الشمال إلى الجنوب، هذا يعني أن الطُّوفان قد غطى كافة سهول " وادي الرافدين "، وإذا تأملنا ترتيب المدن أور، إيريك، شورباك، كيش التي تحمل آثار الطُّوفان، نجد أنها جميعاً تقع على هذا الطريق، وهكذا يكون الطُّوفان قد شمل هذه المدن وما حولها، أضف إلى أنه لا يمكن إغفال الاختلاف في البنية الجيولوجية لسهول " وادي الرافدين " في ذلك الزمن عما هي عليه اليوم، في ذلك الزمن كان حوض نهر الفرات متجهاً إلى الشرق بانحراف أكبر عما هو عليه اليوم؛ هذا المجرى كان متوافقاً مع الخط الذي يمر عبر أور، إيريك، شورباك، وكيش. ومع تفجر عيون الأرض وماء السماء فاض نهر الفرات وخرجت مياهه مدمرة تلك المدن الأربع التي كانت في طريقه.

الأديان والحضارات التي ذكرت الطُّوفان

قصة الطُّوفان معروفة لدى كل شعوب العالم عن طريق الرسل الذين جاؤوا بدين الحق، إلا أنها حرفت إلى أساطير مع انتقالها من جيل إلى جيل وزيد عليها ففسدت رواياتها. أخبر الله الناس بقصة نوح وقومه عن طريق رسله وكتبه التي أرسلها إلى العديد من الأقوام لتكون

إنذاراً وعبرة، وفي كل مرة كان النص يحرّف عن أصوله، ويضاف إلى قصة الطُّوفان عناصر أسطورية وخيالية. القرآن هو المصدر الوحيد الذي بقي دون تحريف، والذي تتوافق نصوصه مع الكشوف والنظريات المستنتجة، بقي القرآن لأن الله عز وجل صانه من أي تحريف أو تغيير أو تشويه. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: 9. وهكذا فالقرآن في حماية الله.

في المقطع الأخير من هذا الفصل سنعرض لقصة الطُّوفان من خلال روايات العديد من الحضارات والعهد القديم والعهد الجديد، بالرغم من التشويه الكبير الذي أصابها.

طُوفان نوح في العهد القديم

الكتاب الحق الذي نزل على موسى هو التوراة، إلا أنه حرف عن أصله بمرور الزمن من قبل أحبار اليهود. كذلك الأمر بالنسبة لكل الرسالات التي أرسلت إلى بني إسرائيل بعد موسى، لم يبق منها شيء لم يصبه التحريف. ويدفعنا هذا إلى اعتبار التوراة والتي فقدت صلتها بالأصل، على أنه كتاب في التاريخ أكثر من كونه كتاباً مقدساً سماوياً، من السهل ملاحظة التشويه الذي تعرضت له الأسفار الخمسة والتناقضات الموجودة فيها عند تأمل رواية الطُّوفان التي وردت فيها، بالرغم من وجود بعض التماثل مع رواية القرآن الكريم في بعض الأجزاء.

حسب رواية العهد القديم: أخبر الله عز وجل نوحاً عليه السلام أن قومه سيهلكون إلا المؤمنين منهم، لأن الأرض قد ملئت جَوراً، ولهذا أمره ببناء السفينة وأخبره كيف يقوم بذلك بالتفصيل، كما أمره أن يصطحب معه عائلته وأولاده الثلاثة ونسوتهم، وزوجين من كل دابة وبعض المؤن.

بعد ذلك بسبعة أيام، وعندما حان وقت الطُّوفان، تفجرت ينابيع الأرض وفتحت أبواب السماء، وحصل طُوفان عظيم أغرق كل شيء، استمر الطُّوفان أربعين يوماً وليلة، وأبحرت السفينة في الماء الذي غطى كل الجبال والمرتفعات، وهكذا أنقذ كل من حمله نوح معه على السفينة وقضى الباقون غرقاً بماء الطُّوفان. توقفت الأمطار بعد الطُّوفان الذي استمر 40

يوماً و40 ليلة، وابتلعت الأرض مياهها بعد 150 يوماً من ذلك .

بعد ذلك، وفي اليوم السابع عشر من الشهر السابع، استوت السفينة على جبال أرارات، وأرسل نوح عدة مرات حماماً ليرى ما إذا كانت المياه قد نضبت كلُّها أم لا، وعندما لم تعد الحمامة في المرة الأخيرة أدرك أن المياه قد انحسرت ، وأمره الله أن ينـزل ومن معه من السفينة وينتشروا في الأرض .

أحد التناقضات الواضحة في العهد القديم فيما يتعلق بهذه القصة، هو النص الذي يلي هذا في نسخة "ياهواه"، و الذي يقول: إن الله أمر نوحاً أن يأخذ سبعة من الحيوانات التي سماها "النظيفة"، ذكوراً وإناثاً، وأزواجاً فقط من تلك التي سماها "الوسخة"، وهذا يتناقض مع النص المذكور أعلاه، كذلك تتناقض المعلومات عن فترة الطُّوفان ففي رواية اليهوي استمر ارتفاع الماء أربعين يوماً، بينما في رواية ليمان استمرت 150 يوماً.

هنا بعض المقاطع من العهد القديم تروي طُوفان نوح، حسب رواية ليمان :

﴿فقال الله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامي، لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم، فها أنا مهلكهم مع الأرض، اصنع لنفسك خشباً من جفر، فها أنا آت بطُوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء، كل ما في الأرض يموت، ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفُلْكَ أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك، ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفُلْكِ لاستبقائها معك. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله ، هكذا فعل.﴾ (التكوين 6: 13—22)

﴿واستقر الفُلْكُ في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أرارات﴾". (التكوين 8:4).

﴿من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى، ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى، 3 ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى، لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض.﴾" (التكوين 7:2—3).

﴿أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضا بمياه الطُّوفان، ولا يكون أيضاً طُوفان

ليخرب الأرض﴾ (التكوين 11:9).

حسب رواية العهد القديم: "كل ما على الأرض سوف يموت" في الطُّوفان الذي غمر كل العالم، فإن كل الناس قد أصابهم العقاب ما عدا أولئك الذين كانوا على ظهر السفينة مع نوح.

طُوفان نوح في العهد الجديد

ليس العهد الجديد بأفضل حالاً من العهد القديم، إذ لا يمكن اعتباره كتاباً سماوياً، فهو لا يتعدى أن يكون أكثر من كلمات وأعمال الرسول عيسى عليه السلام، يبدأ العهد الجديد بأربعة أناجيل كتبت بعد عيسى بقرن من الزمن، كتبها أناس لم يروا عيسى ولم يصاحبوه وهم : متى، مرقس، لوقا، يوحنا. التناقض بين هذه الأناجيل الأربعة شديد الوضوح، وخاصة إنجيل يوحنا الذي يختلف كثيراً عن الأناجيل الثلاثة الأخرى التي تعتبر متوافقة مع بعضها إلى حد ما وليس بشكل كامل. الكتب الأخرى من العهد الجديد تتكون من رسائل كتبها الحواريون والقديس بولس يصفون فيها أعمال الرسل بعد عيسى.

لذلك لا يمكن اعتبار العهد الجديد المتداول اليوم كتاباً سماوياً، وإنما هو أقرب ما يكون إلى الكتاب التاريخي.

يصف العهد الجديد طُوفان نوح باختصار كالآتي: بُعث نوح رسولاً إلى قوم عصاة ضالين، إلا أنهم لم يتبعوا رسالته، بل أصرُّوا على عنادهم، وبذلك استحقوا عقاب الله، فأغرق المكذبين منهم بالطُّوفان وأنقذ نوحاً ومن آمن معه بحملهم على السفينة. فيما يأتي بعض المقاطع من العهد الجديد التي تصف القصة:

﴿وكما كانت أيام نوح كذلك أيضا يكون مجيء ابن الإنسان38. لأنه كما كانوا في الأيام التي قبل الطُّوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفُلْكَ ولم يعلموا حتى جاء الطُّوفان وأُخذ الجميع. كذلك يكون أيضاً مجيء ابن الإنسان.﴾ (متى:37—39).

﴿5 ولم يشفق على العالم القديم، بل إنما حفظ نوحاً ثامناً كارزاً للبر، إذ جلب طُوفاناً على عالم

الفجار.﴾ (بطرس: 5).

﴿وكما كان في أيام نوح كذلك يكون أيضا في أيام ابن الإنسان. كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون إلى اليوم الذي فيه دخل نوح الفُلْكَ وجاء الطُّوفان وأهلك الجميع.﴾ (لوقا 17: 26—27).

﴿إذ عصت قديما حين كانت أناة الله تنتظر مرة في أيام نوح، إذ كان الفُلْكُ يبنى الذي فيه خلص قليلون أي ثماني أنفس بالماء.﴾ (بطرس 3: 20).

﴿لأن هذا يخفى عليهم بإرادتهم أن السماوات كانت منذ القديم، والأرض بكلمة الله قائمة من الماء وبالماء، 6 اللواتي بهن العالم الكائن حينئذ فاض عليه الماء فهلك.﴾ (بطرس 3: 5—6).

روايات عن الطُّوفان في حضارات أخرى

السومرية: أخبر الإله إنليل الناس أن الآلهة الأخرى عزمت على إهلاك البشرية، ولكنه هو نفسه يريد إنقاذها. بطل القصة هو زيوسودرا، ملك مدينة سيبور، أخبر الإله إنليل زيوسودرا ماذا يفعل لينجو من الطُّوفان . النص المتعلق ببناء السفينة غير موجود، إلا أن الأجزاء الأخرى من القصة والتي تروي كيف نجا البطل من الطُّوفان، تظهر أن هذا المقطع كان موجوداً، وبالاعتماد على الرواية البابلية للقصة نصل إلى نتيجة حقيقية بأنه لابد أن تكون النسخة السومرية الكاملة متضمنة تفاصيل شاملة عن الطُّوفان وأسبابه وكيفية بناء السفينة.

البابلية: أوت نابيشتيم هو البطل البابلي الموازي للبطل السومري زيوسودرا، والشخصية المهمة الأخرى هي شخصية غلغامش، حسب الأسطورة، يقرر غلغامش أن يجد أسلافه ليحصل على سر الخلود، حُذّر غلغامش من الصعوبات والمخاطر التي تنتظره خلال رحلته هذه، قيل له: إنه سيمر على جبال ماشو ومياه الموت"؛ وإن هذه الرحلة لم يقم بها أحد سوى إله الشمس شامشا حتى الآن، إلا أن غلغامش اجتاز بشجاعة كل المخاطر ووصل إلى أوت نابيشتيم.

ينقطع النص عندما يلتقي غلغامش بنابيشيم، وعندما يعود مرة أخرى يستمر من قول

نابيشتيم لغلغامش:

"احتفظت الآلهه بسر الموت والحياة لنفسها (أي: إنها لا تطلع عليه أحداً من الناس)، وهنا سأله غلغامش: كيف يمكن أن يحصل على الخلود؟ فأخبره بقصة الطُّوفان كجواب عن سؤاله. وتوجد رواية الطُّوفان أيضاً في " الموائد الاثنا عشرة" من أسطورة غلغامش.

بدأ أوت نابيشتيم حديثه بأن هذه القصة التي سيرويها إلى غلغامش هي سر من أسرار الآلهة، قال: إنه جاء من مدينة شورباك أقدم مدن أرض أكاد، ناداه الإله"إي" حسب روايته، ناداه من خلف جدران كوخه المصنوع من القصب، وأخبره أن الآلهه قررت أن تقضي على كل ما هو حي فتغرقه بطُوفان، إلا أن سبب قرارهم هذا أغفل في القصة البابلية كما أغفل في الرواية السومرية. قال أوت نابيشيم: إن الإله "إي" أخبره أن يصنع سفينة ويضع فيها

"بذور كل الأحياء"، وأعلمه عن حجم السفينة، فكانت أبعادها طولاً وعرضاً وارتفاعاً متساوية، قلبت العاصفة كل شيء رأساً على عقب، واستمرت ستة أيام، وفي اليوم السابع هدأت، ورأى أوت نابيشتيم أن كل شيء قد تحول إلى طين، واستقرت السفينة على "مت نيصير".

وحسب السجلات السومرية والبابلية: فقد أنقذ "إيكزوثروس" أو "خاسيساترا" من الطُّوفان في السفينة التي بلغ ارتفاعها 925 متراً هو وعائلته وأصدقاؤه وبعض الحيوانات والطيور. ويقال: إن "المياه ارتفعت إلى السماء، وغطت المحيطات والشطآن، وفاضت الأنهار فخرجت من مجراها"، واستوت السفينة في النهاية على جبل "كوريديان".

وحسب الرواية الآشورية- البابلية: فقد أنقذ "أوبرا توتو" أو "خاسيساترا" هو وعائلته وخدمه وقطعانه والحيوانات الأليفة على سفينة طولها 600 ذراعاً وارتفاعها 60 ذراعاً وعرضها 60 ذراعاً أيضاً، استمر الطُّوفان ستة أيام وست ليال، وعندما وصلت السفينة إلى جبل نزار، عادت الحمامة التي كانت قد أطلقت من السفينة ولم يعد الغراب الأسود.

وحسب بعض السجلات السومرية والآشورية والبابلية: فإن أوت نابيشتيم قد أنقذ مع عائلته في السفينة من الطوفان الذي استمر ستة أيام وست ليال، " وفي اليوم السابع نظر أوت

نابيشتيم إلى الخارج، الهدوء يلف المكان، لقد عاد الإنسان مرة أخرى إلى الطين″، وعندما استوت السفينة على جبل نزار، أرسل حمامة وغراباً وعصفوراً. بقي الغراب ليأكل من حبوب الأرض بينما لم يرجع الآخران.

الهندية: تقول الشاتاباثا البراهمية وأساطير الماهاباهارتا الهندية: إن رجلاً يدعى مانو قد نجا من الطُّوفان مع ريشيتز، وحسب رواية الأسطورة: فقد كبرت السمكة التي التقطها مانو من البحر وأبقى على حياتها، وفجأة قالت له أن يصنع سفينة ويربطها إلى قرنيها، كانت هذه السمكة تجلياً من تجليات الإله ″فيشنو″، وقادت السمكة السفينة في المياه لتوصلها إلى جبل هيسمافات.

ويلز : حسب أساطير ويلز: فقد فر كل من دوينوين و دوينفاك من الكارثة الكبيرة في السفينة، وعندما انتهى الطُّوفان الكبير الذي حدث من فيضان ″لينليون″ الذي كان يسمى ″بحيرة الأمواج″ استقر كل من دوينوين ودوينفاك واستوطنا بريطانيا من جديد.

اسكندينافيا: تقول أساطير ″: إيدا″: إن بيرغالمير وزوجته قد هربا من الطُّوفان الكبير في سفينة كبيرة.

ليتوانيا: تروي الأسطورة الليتوانية أن قليلاً من أزواج البشر والحيوانات قد نجوا في قشرة بندق عملاقة عند قمة أحد الجبال العالية عندما عصفت الرياح، وفاضت المياه التي استمرت اثني عشر يوماً وليلة، ووصلت إلى الجبل المرتفع لتبتلع كل من كان عليه، أرسل الخالق إليهم قشرة بندق عملاقة، ونجا من كان على الجبل بإبحارهم في قشرة البندق هذه.

الصين: تروي المصادر الصينية أن رجلاً يدعى ″ياو″، أو ″فا لي″ ، مع سبعة آخرين و زوجته وأولاده قد نجوا في سفينة من طُوفان عظيم وهزات أرضية، ويقال: إن ″الأرض كانت في دمار كامل، لقد تفجرت المياه وغطت كل شيء.″ وفي النهاية انحسر الماء.

طُوفان نوح في الأساطير الإغريقية: قرر الإله زيوس إغراق الناس الذين يملؤون الأرض فساداً كل يوم بالطُّوفان، ديوكاليون وزوجته بيرا فقط هما اللذان نجيا من الطُّوفان، لأن بروميثيوس والد ديوكاليون نصحه ببناء سفينة، . ونزل الزوجان إلى جبل بيرناسوس بعد تسعة

أيام من صعودهم إلى القارب.

تدل كل هذه الأساطير على حقيقة تاريخية ملموسة تاريخياً، كل أمة أتاها رسول وتلقت وحياً إلهيّاً، و لذلك عرفت العديد من الحضارات قصة الطُّوفان، ولكن للأسف عندما بدأ الناس ينحرفون عن جوهر الوحي السماوي وحقيقته، بدأ التشويه يتسرب إلى هذه الحادثة ليحولها إلى أساطير.

القرآن هو المصدر الوحيد الذي يمكن أن نجد فيه قصة نوح والقوم الذين كذبوه، لأنه المصدر الوحيد للوحي الذي لم يصبه التحريف.

يقدم لنا القرآن المعلومات الصحيحة، ليس فقط عن قصة نوح، وإنما عن السابقين من الأقوام والأحداث التاريخية المرافقة أيضاً، في الفصول القادمة سنستعرض القصص الحقيقية لهذه الأقوام.

الفصل الثاني

حياة النبي إبراهيم عليه السلام

*﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبْرَاهِيْمَ لَلَّذِيْنَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾*

آل عمران: 67-68.

يُذكر النبي إبراهيم في القرآن عدة مرات وفي عدة مناسبات، ويصفه الله عز وجل بأنه قدوة للبشرية، لقد نقل إبراهيم عليه السلام رسالة الله إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأوثان وأنذرهم أن يخافوا الله، إلا أن قومه لم يستمعوا له ولدعوته، بل ظلوا على معاكستهم له، وعندما ازدادت معارضة قومه كان على إبراهيم أن يهجرهم إلى مكان آخر مع زوجته والنبي لوط وربما مع بعض المؤمنين.

ينحدر سيدنا إبراهيم من سلالة نوح عليه السلام، ويخبرنا القرآن أنه اتبع نهجه:

﴿سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِيْنَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِيْنَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِيْنَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * وَإِنَّ مِنْ شِيْعَتِهِ لإِبْرَاهِيْمَ﴾ الصافات: 79-83 .

في زمن إبراهيم عليه السلام كان الكثير ممن يسكنون " وادي الرافدين " وهضبة الأناضول يعبدون السماء والنجوم، كان "سن" أكثر آلهتهم شهرة وهو إله القمر، وكانوا يمثلونه كإنسان بلحية طويلة يرتدي ثوباً ويحمل قمراً في يده على شكل هلال، وكان هؤلاء ينقشون صوراً وينحتون تماثيل لهذه الآلهة ويعبدونها، انتشر نظام العبادة هذا انتشاراً واسعاً،

وقد وجد تربة خصبة ومناسبة في منطقة الشرق ضمنت له استمراراً جيداً ولوقت طويل. بقي الناس يعبدون هذه الآلهة حتى سنة 600 ميلادية، نتيجة لهذا المعتقد ظهرت أنواع من الأبنية سميت "الزقورات" على امتداد المنطقة الواقعة ما بين "وادي الرافدين" وهضبة الأناضول الداخلية وكانت تستخدم كمعابد ومراصد فلكية، هنا عبد إله القمر "سن". [12]

هذا الدين الذي لم يكتشف قبل الحفريات الأثرية العصرية، كلمنا عنه القرآن الكريم، لقد رفض إبراهيم عليه السلام عبادة هذه الأوثان ، التفت لعبادة الله وحده، تبين لنا الآيات الآتية كيف كان سلوك إبراهيم وموقفه إزاء هذا المعتقد:

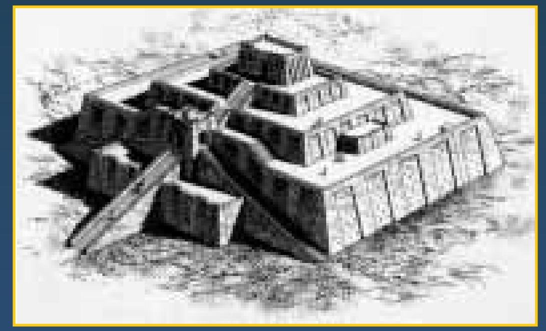
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَومَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِيْنٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيْمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِيْنَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِيْنَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّيْنَ * فَلمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذا أَكْبَرُ فَلما أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيْفاً ومَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴾ الأنعام: 74–79.

لم يذكر القرآن مكان ولادة وإقامة إبراهيم(ع) بالتفصيل، إلا أنه ذكر لنا أنه أقام هو ولوط في منطقتين متقاربتين وكانا في زمن واحد، دل على ذلك ماذكره لنا القرآن الكريم من مرور الرسل الذين جاءوا قوم لوط على إبراهيم عليه السلام وتبشيرهم امرأته بغلام قبل أن يصلوا إلى مدينة لوط.

هناك موضوع مهم في قصة إبراهيم(ع) لم يذكره العهد القديم وهو بناء الكعبة، في القرآن نجد أن الكعبة قد بنيت بيدي إبراهيم وابنه إسماعيل، الشيء الوحيد الذي يعرفه المؤرخون اليوم حول ماضي الكعبة هو أنها كانت مكاناً مقدساً منذ زمن بعيد، أما وجود الأصنام في الكعبة في العصر الجاهلي الذي سبق محمداً صلى الله عليه وسلم، فقد جاء نتيجةً للتشويه الذي أصاب دين إبراهيم الحنيف الذي أوحي إليه والانحراف عنه.



كانت الأديان الشركية هي السائدة في زمن النبي إبراهيم(ع) في منطقة وادي الرافدين. فكان الإله »سن« إله القمر أحد أهم الأوثان لديهم. قام الناس بنحت تماثيل لهذه الآلهة وعبدوها. تبدو تماثيل »سن« إلى اليسار. كما تظهر علامة الهلال بوضوح على صدر التمثال.



بنيت الزاكورات التي كانت تستخدم كمعابد ومراصد فلكية في وقت واحد، بتقنيات ذلك العصر المتقدمة جداً. كانت النجوم والقمر والشمس هي المعبودات الرئيسية؛ لذلك كانت السماء على جانب من الأهمية بالنسبة لهم. تظهر زاكورات وادي الرافدين الهامة إلى اليسار والأسفل.



إبراهيم عليه السلام حسب رواية العهد القديم

العهد القديم هو المصدر الوحيد الذي يحتوي على الكثير من تفاصيل حياة النبي إبراهيم(ع)، إلا أن الكثير منها غير موثوقة، ولد إبراهيم(ع) حسب رواية التوراة عام 1900 قبل الميلاد في مدينة أور، إحدى أهم مدن ذلك الزمان، والتي كانت تقع إلى الجنوب الشرقي من سهول " وادي الرافدين "، عندما ولد لم يكن اسمه إبراهيم، بل كان اسمه أبرام ثم غيره الإله يهوه فيما بعد.

وفي أحد الأيام طلب الإله من أبرام أن يترك مدينته وقومه ويذهب إلى مكان آخر غير محدد، وأن يقيم مجتمعاً جديداً، سمع أبرام هذا النداء وهو في الخامسة والسبعين من عمره، فخرج وزوجته العاقر ساراي – والتي ستحمل اسم سارَّة فيما بعد ومعناه الأميرة – وابن أخيه لوط، وأثناء توجههم إلى الأرض المختارة، توقفوا في حَرَّان ثم تابعوا طريقهم، وعندما وصلوا إلى أرض كنعان التي وعدهم الله بها، أُخبروا أن هذه الأرض قد اختيرت ووهبت لهم خصيصاً، وعندما بلغ أبرام التاسعة والتسعين أبرم موثقاً مع الله وتغير اسمه إلى إبراهيم. توفي وهو في السابعة والخمسين بعد المئة من عمره ودفن في كهف في ماتشبيله قريباً من مدينة حَبْرُون (الخليل) في الضفة الغربية التي تحتلها إسرائيل، هذه الأرض التي اشتراها إبراهيم مقابل مبلغ من المال، كانت أول ما امتلكه هو وعائلته في الأرض الموعودة .

مكان ميلاد إبراهيم (ع)حسب رواية العهد القديم

بقي هذا الموضوع محل نقاش مستمر، فبينما يقول اليهود والنصارى: إن إبراهيم(ع) قد ولد في جنوبي " وادي الرافدين "، فإن الاعتقاد الإسلامي السائد أنه ولد في منطقة قريبة من أورفا وحَرَّان، أظهرت بعض المكتشفات الحديثة أن نظرية اليهود والنصارى لا تعكس الحقيقة كاملة.

اعتمد اليهود والنصارى في روايتهم على العهد القديم، ففيه يذكر أن إبراهيم قد ولد في مدينة أور جنوب ما بين النهرين، بعد أن شب إبراهيم (ع) في هذه المدينة، هاجر إلى مصر في رحلة طويلة، مر فيها على منطقة حران التركية.

إلا أن مخطوطاً اكتشف حديثاً للعهد القديم يشكك في صحة هذه المعلومات، في هذه المخطوطة الإغريقية التي تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، والتي تعتبر أقدم نسخة عن العهد القديم وجدت حتى الآن، لم تذكر مدينة أور على الإطلاق، واليوم تفيد عدةٌ من الأبحاث التي تناولت العهد القديم أن كلمة "أور" غير دقيقة أو أنها إضافة لاحقة، هذا يعني أن إبراهيم عليه السلام لم يولد في أور، وربما لم يرَ "وادي الرافدين" في حياته.

أضف إلى أن أسماء بعض المناطق ودلالاتها تتغير مع تغير الزمن، ففي يومنا هذا تشير عبارة سهول" وادي الرافدين" بشكل عام إلى الضفاف الجنوبية لنهري دجلة والفرات في الأراضي العراقية، أما منذ ألفي سنة فقد كان " وادي الرافدين " تمتد أكثر إلى الشمال لتصل إلى حران وتتوغل في الأراضي التركية. فلو سلمنا جدلاً أن ذِكْرَ "سهول وادي الرافدين " في العهد القديم صحيح، فإنه من الخطأ التفكير بأن وادي الرافدين " اليوم هي نفسها" وادي الرافدين " ما قبل ألفي عام.

ولكن إذا كانت هناك شكوك حول مدينة أور كمسقط لرأس إبراهيم عليه السلام، فإن إجماعا عاما يقول بأنه استقر في حران والمنطقة المجاورة لها، علاوة على ذلك يقدم بحث صغير من العهد القديم معلوماتٍ تدعم القول بأن ميلاد إبراهيم (ع) كان في حران، على سبيل المثال: يحدد العهد القديم منطقة حران بأنها "منطقة آرام" (سفر التكوين 13:11 و 10:28). وتنص على أن ذرية إبراهيم هم "أبناء آرام" . إن تحديد هوية إبراهيم "بالآرامي" يعني أنه أمضى حياته في تلك المنطقة.

الدلائل القاطعة الإسلامية تقول بأن مولد إبراهيم عليه السلام كان في حران و أورفه؛

ففي أورفه التي يطلق عليها اسم "مدينة الرسل"، تروى الكثير من الأساطير حول إبراهيم(ع).

لماذا تغير العهد القديم

يبدو العهد القديم والقرآن وكأنهما يرويان قصة عن شخصين مختلفين هما أبراهام وإبراهيم (ع)، ففي القرآن الكريم بُعث إبراهيم كرسول إلى قوم وثنيين يحمل رسالة سماوية، كان قومه يعبدون السماء والنجوم والقمر وأوثاناً مختلفة، وقف إبراهيم(ع) في وجه قومه محاولاً أن يردهم عن ضلالتهم إلى الطريق الصحيح، والنتيجة أنه حرك حقدهم وعداءهم تجاهه بمن فيهم أبوه.

في الحقيقة لا يوجد شيء من هذا في العهد القديم، كذلك قصة رمي إبراهيم في النار وكسره لأصنام قومه غير مذكورة أيضاً. يُصَوَّرُ إبراهيم في العهد القديم على أنه جد اليهود، من الواضح أن هذه الفكرة مأخوذة عن زعماء اليهود الذين يحاولون تثبيت مفهوم السلالة. يؤمن اليهود بأنهم شعب اختاره الله واعتبره النخبة دون غيره من الشعوب، لقد قاموا عن قصد وإصرار بتغيير كتابهم السماوي، وزادوا عليه ليتوافق مع هذا المفهوم، لهذا السبب يصورون إبراهيم على أنه جدُّهم في توراتهم.

ويؤمن النصارى الذين يصدقون بالتوراة، أن إبراهيم)U) جد اليهود، مع فارق بسيط هو أنهم يعتبرونه نصرانياً وليس يهودياً، اعتنق النصارى ـ الذين لا يهتمون بمفهوم السلالة كما يهتم اليهود ـ هذا الرأي بشدة، مما أثار الخلاف والنـزاع بينهم وبين اليهود، ويبين لنا القرآن هذا الخلاف بقوله تعالى:

﴿يَاأَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبراهِيْمَ وَمَآ أُنْزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإِنْجِيْلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَآ أَنْتُمْ هَؤلآءِ حَاجَجْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْراهِيْمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيْفاً مُسْلِماً وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيْمَ لَلَّذِيْنَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ آل عمران: 65–68.

يبدو التباين واضحاً بين القرآن والتوراة، فإبراهيم في القرآن هو رسول بعثه الله إلى قومه لينذرهم ويدعوهم إليه، ومن أجل هذا خاصمهم ووقف ضدهم، كان يحذر قومه الذين عبدوا الأصنام وينصحهم بأن يتخلوا عن ممارساتهم الوثنية منذ أن كان شاباً، وكانت استجابة قومه أن عزموا على قتله، وبعد أن نجا من أحقاد قومه وشرورهم، كانت الهجرة آخرَ الحلول...

الفصل الثالث

قوم لوط والمدينة التي قُلبت رأسا على عقب

﴿ كَذَّبَتْ قَومُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ* نِّعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِيْ مَنْ شَكَرَ* وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ القمر: 33-36.

عاش لوط (ع) في نفس زمن إبراهيم عليه السلام مرسلاً إلى بعض الأقوام المجاورة لإبراهيم، كان هؤلاء القوم كما يخبرنا القرآن الكريم يمارسون نوعاً من الشذوذ لم تعرفه البشرية قبلهم، وهو اللواط. عندما نصحهم لوط بأن يقلعوا عن ممارسة هذا الشذوذ وأنذرهم بطش الله وعقابه، كذبوه وأنكروا نبوته ورسالته، وتمادوا في شذوذهم وغيهم، وفي النهاية هلك القوم بما وقع عليهم من كارثة مريعة.

في العهد القديم يشار إلى المنطقة التي أقام فيها لوط على أنها سدوم، وحيث إن هذه المنطقة تقع إلى الشمال من البحر الأحمر، فقد كشفت الأبحاث أن الدمار قد لحق بها تماماً كما جاء في القرآن الكريم، تدل الدراسات الأثرية أن تلك المدينة كانت في منطقة البحر الميت التي تمتد على طول الحدود الأردنية الفلسطينية.

قبل أن نقوم بفحص آثار هذه الكارثة، يمكننا أن نتأمل السبب وراء عقاب آل لوط، يروي لنا القرآن كيف أنذر لوطٌ قومَه وبماذا أجابوه:

﴿كَذَّبَتْ قَومُ لُوطٍ الْمُرسَلِيْنَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِيْنٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيْعُونِ * وَمَا أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِيْنَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِيْنَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَومٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِيْنَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القَالِيْنَ ﴾. الشعراء: 160—168.

هدد القومُ لوطاً عندما دعاهم إلى اتباع الطريق الصحيح، لقد أبغضوه لأنه يدعوهم إلى الحق والطهر، وعزموا على طرده هو والذين آمنوا معه كما تعرض لنا الآيات الآتية:

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَومِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِيْنَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنْتُمْ قَومٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوابَ قَومِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ الأعراف: 80—82.

عرض لوط(ع) على قومه الحقيقة واضحة وأنذرهم بشكل واضح وصريح، إلا أنهم لم يكترثوا لأي تهديد أو وعيد، واستمروا في نكرانهم وتكذيبهم بالوعيد الذي جاء به:

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَومِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِيْنَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيْلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيْكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوابَ قَومِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ﴾ العنكبوت: 28—29.

وهنا وبعد أن تلقى لوط(ع) هذا الجواب توجه إلى الله يسأله العون:

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى القَوْمِ الْمُفْسِدِيْنَ﴾ العنكبوت: 30.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ الشعراء: 169.

وهكذا استجاب الله لرسوله، فأرسل ملكين في صورة رجلين، مر هذان الملكان على إبراهيم قبل أن يصلوا لوطاً، وأعطوه البشرى بأن امرأته ستلد له غلاماً، وشرح الملكان لإبراهيم سبب إرسالهم إلى قوم لوط: لقد حكم على قوم لوط المتغطرسين بالهلاك...

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّها الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَومٍ مُّجْرِمِيْنَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً

مِّنْ طِيْنٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلمُسْرِفِيْنَ ﴾ الذاريات: 31—34.

﴿**إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِيْنَ * إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَآ إِنَّها لَمِنَ الغَابِرِيْنَ** ﴾ الحجر: 59—60.

وبعد أن غادر الملكان – وهما على هيئة رسولين – إبراهيم وصلوا لوطاً، اغتم لوط لمجيء الرسل في بادئ الأمر لأنه لم يكن قد رآهم قبلاً، إلا أنه هدأ بعد أن تكلما معه:

﴿**وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيْءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيْبٌ** ﴾ هود: 77.

﴿قَالَ **إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِماَ كَانُوا فِيْهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِيْنَ** ﴾ الحجر: 62—66.

في هذه الأثناء عرف القوم أن لوطاً يستضيف ضيوفاً، فلم يترددوا في إيذائهم بممارساتهم البشعة، فطوقوا منزل لوط ينتظرون خروجهم، خاف لوط على ضيوفه من أن يلحق بهم الأذى فخاطب قومه قائلاً:

﴿ **قَالَ إِنَّ هَؤُلآءِ ضَيْفِيْ فَلاَ تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخزُونِ** ﴾ الحجر: 68—69.

فأجابه القوم:

﴿**قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمِيْنَ** ﴾ الحجر: 70.

ظن لوط أنه أصبح وضيوفه مُعَرَّضِين إلى تلك الممارسة الشيطانية فقال:

﴿**قَالَ لَو أَنَّ لِيْ بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيْدٍ** ﴾ هود: 80.

إلا أن ضيوفه ذَكَّروه بأنهم رسل الله إليه وقالوا:

﴿قَالُوا **يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوآ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيْبُها مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيْبٍ** ﴾ هود: 81.

وعندما وصل شذوذ القوم الذُّرْوَةَ، أنقذ الله لوطاً بمساعدة الملكين، وفي الصباح أُهلك القوم بالكارثة المدمرة التي أنذرهم بها لوط من قبل:

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ القمر: 37—38 .

وتصف لنا الآيات دمار القوم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيْلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِيْنَ * وَإِنَّها لَبِسَبِيْلٍ مُّقِيمٍ﴾ الحجر: 73—76 .

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيْلٍ مَّنْضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِنْد رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِيْنَ بِبَعِيْدٍ﴾ هود: 82—83.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِيْنَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِيْنَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِيْنَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيْزُ الرَّحِيْمُ﴾ الشعراء: 172—175 .

وعندما دُمِّرَ القوم لم ينج منهم إلا لوط ومن آمن معه، وهؤلاء جميعاً لم يكونوا يتعدون عدد أفراد الأسرة الواحدة. إلا أن امرأة لوط لم تكن من المصدقين فهلكت مع الهالكين.

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِيْنَ * إِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسآءِ بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الغَابِرِيْنَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِيْنَ﴾ الأعراف: 80—84 .

وهكذا نجا لوط(ع) ومن معه من المؤمنين وعائلته إلا امرأته كانت من الغابرين. وكما ورد في التوراة : هاجر لوط مع إبراهيم عليهما السلام بعد أن هلك القوم الضالون ومسحت منازلهم وجه الأرض.

الآيات الواضحة في بحيرة لوط

توضح الآية 82 من سورة هود ماهية العذاب الذي وقع على قوم لوط:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ .

جملة ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ تشير إلى أن المنطقة قد أصابتها هزة أرضية عنيفة جداً، وهنا نجد أن بحيرة لوط، المكان الذي وقع فيه العذاب، تحمل دلائل واضحة عن كارثة كهذه.

يقول عالم الآثار الألماني فيرنر كيلر:

غاص وادي سديم الذي يتضمن سدوم وغوموراه مع الشق العظيم، الذي يمر تماماً في هذه المنطقة، في يوم واحد إلى أعماق سحيقة، حدث هذا الدمار بفعل هزة أرضية عنيفة صاحبتها عدة انفجارات، وأضواء نتج عنها غاز طبيعي وحريق شامل.[13]

في الحقيقة، تعتبر منطقة البحر الميت، أو بحيرة لوط، منطقة زلزالية نشطة، أي منطقة زلازل.وهو يقع في صدع تكتوني متجذر ، ويمتد هذا الوادي 300 كم على طول الوتر الواصل بين وبحيرة طبريا شمالاً الى منتصف وادي عربة جنوباً .[14]

أما الجملة الأخيرة من الآية: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ فربما تعني حدوث انفجار بركاني على ضفتي بحيرة لوط، ولهذا كانت الحجارة التي انطلقت ﴿ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ تعرض الآية 173 من سورة الشعراء لنفس الصورة: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾.

وعن ذلك يقول فيرنر كيلر:

"تحررت القوى البركانية التي كانت هامدة في الأعماق على طول الصدع من ذلك الغور، ولا تزال فوهات البراكين الخامدة تبدو ظاهرة في الوادي العلوي من الضفة الغربية، بينما تترسب هنا الحمم البركانية وتتوضع طبقات عميقة من البازلت على مساحة واسعة من السطح الكلسي.[15]

تدل هذه الحمم المتحجرة وطبقات البازلت على تعرض هذه المنطقة إلى هزة عنيفة وبركان ثائر في زمن من الأزمنة، وتبدو هذه الكارثة بالسياق القرآني ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ فالقرآن يشير، على أغلب الظن إلى هذا الانفجار البركاني، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ يشير إلى وقوع الزلزال الذي استثار



صورة التقطها القمر الصناعي لمنطقة قوم لوط

البركان لينفجر على سطح الأرض ليترك آثاراً مدمرة وشقوقاً وحمماً، والله أعلم.

الدلائل البينة والآيات الواضحة التي تظهر في بحيرة لوط مثيرة للغاية، بشكل عام تقع كل الأحداث التي يرويها القرآن في الشرق الأوسط، الجزيرة العربية ومصر، في منتصف هذه المناطق تماماً تقع بحيرة لوط. قد أثارت بحيرة لوط والمناطق المجاورة لها اهتمام الجيولوجيين، إذ تنخفض هذه البحيرة ٤٠٠ متراً عن سطح البحر الأبيض المتوسط، وبما أن أخفض نقطة في هذه البحيرة تغوص حتى ٤٠٠ متراً عن سطحها، إذن فقاع البحيرة يكون بانخفاض ٨٠٠ متراً عن سطح البحر، وهذه أخفض نقطة على وجه الأرض، لا يتعدى عمق المناطق المنخفضة عن سطح البحر في البحر أكثر من ١٠٠ متراً. الخاصية الأخرى التي تختص بها هذه البحيرة دون غيرها هي الكثافة الملحية فيها والتي تبلغ ٣٠٪ ، ولا تسمح هذه النسبة لا تسمح لأي نوع من



الكائنات البحرية مثل الأسماك، الطحالب، الإشنيات وما إلى ذلك بالعيش فيها، ولهذا سميت بالبحر الميت "Dead Sea" في الأدب الغربي.

وحسب التقديرات: فإن قصة قوم لوط التي يرويها القرآن تعود إلى 1800 قبل الميلاد، لاحظ كيلر من خلال دراساته الجيولوجية والأثرية أن مدينتي سدوم وغومورا كانتا تقعان في وادي سديم الذي كان يشغل النهاية القصوى والأكثر انخفاضاً من بحيرة لوط، وأن هذه المنطقة كانت من أكثر المناطق سكاناً في هذه الأرض.

من أكثر الخصائص البنيوية لهذه البحيرة هو ذلك الدليل الذي يظهر واقعة الدمار كما رواها القرآن.

هناك قسم يشبه اللسان يشكل شبه جزيرة في شرقي بحيرة لوط،وهو يمتد نحو داخل البحيرة وقد أطلق العرب على هذا القسم أسم "اللسان،وهو يقسم قاع البحيرة تحت الماء



صورة لبحيرة لوط من القمر الصناعي



بحيرة لوط، أو البحر الميت كما يسمى.

الى قسمين،ولا يبدوا هذا ظاهراً للعيان فوق اليابسة.ومع أن القاع في يمين شبه الجزيرة هذه هو على عمق 400 م،إلا أن الجانب الأيسر منها ضحل الى درجة محيرة. وقد أظهر السبر الذي أجري منذ عدة سنوات أن عمق الماء هنا يزيد عن 15 – 16 م، هذه المنطقة الضحلة تشكلت فيما بعد تكونت نتيجة الزلازل وما تبعتها من ترسبات للانهيارات الكبيرة التي حدثت في أعقابها .وهذه المنطقة هي منطقة سدوم وعامورا التي عاش فيها قوم لوط لاحظ وورنر كيلر هذا الجزء الضحل، الذي اكتُشف أنه قد تشكل فيما بعد، أنه حصل نتيجة الهزة الأرضية والانهيار الكبير الذي أحدثته هذه الهزة، هذه المنطقة هي التي كانت تشغلها سدوم وغومورا، أي: مسكن قوم لوط.

كان من الممكن في القديم الانتقال من هنا الى الضفة المقابلة مشياً على الأقدام.أما الان فأن الجزء السفلي من البحر الميت يغطي مدن سدوم وعامورا االوجودتان في وادي سديم.ونتيجة لأنهيار القاعدة بسبب كارثة طبيعية مرعبة حدثت في الالف الثاني ق.م اندفعت المياه المالحة من الشمال الى هذا الفراغ والتجويف الحادث وملأت ها القسم تماماً. [16]



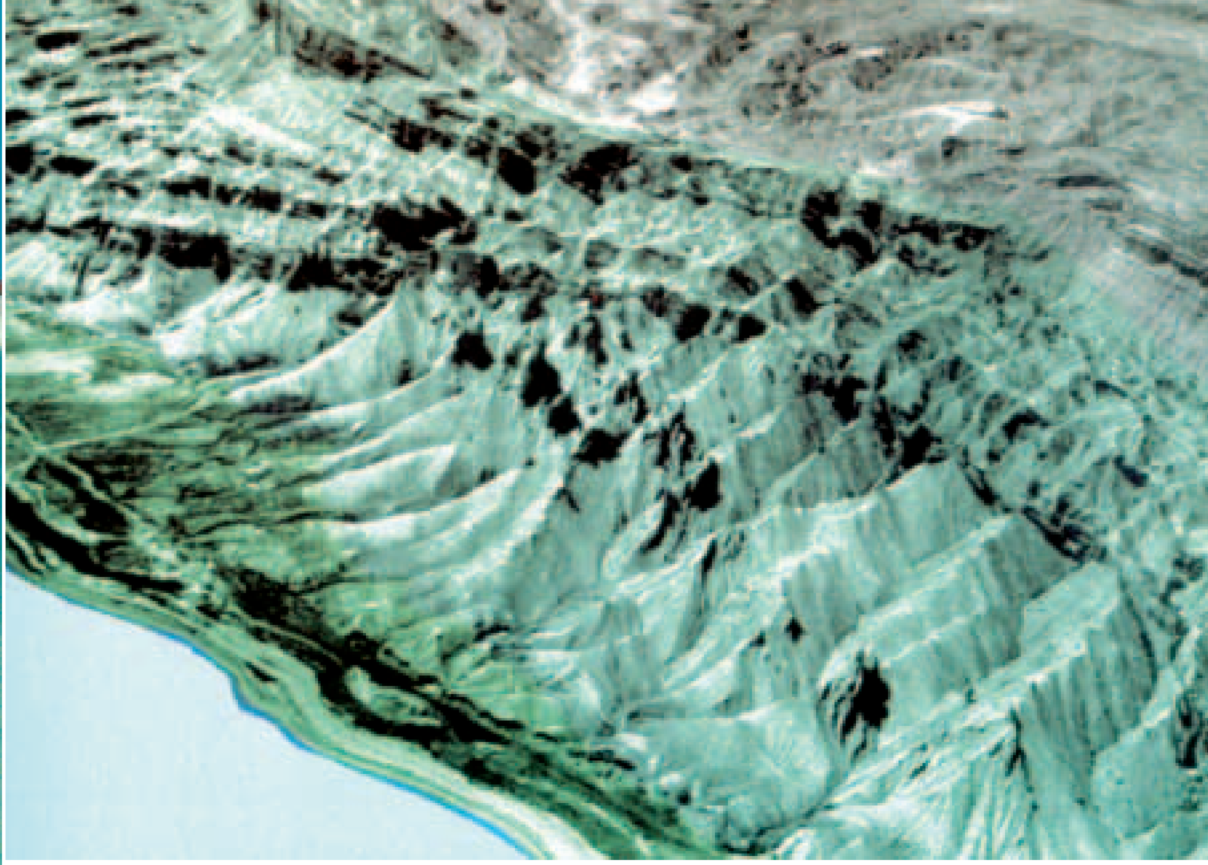
صورة إلى اليسار توضح الثورة البركانية والانهيار الذي تبعها، والذي سبَّب اختفاء القوم عن بَكْرَةِ أبيهم.
في الصفحة المقابلة، مشهد بعيد لبحيرة لوط.

تبدو آثار قوم لوط واضحة... عندما تبحر في قارب عبر بحيرة لوط إلى أقصى نقطة جنوباً، وعندما تكون الشمس مرسلة أشعتها باتجاه اليمين، سترى شيئاً مذهلاً، على بعد معين من الشاطئ، وتحت ماء البحر الصافي تظهر حدود الغابات التي حفظتها ملوحة البحر الميت بشكل واضح: أغصان قديمة جداً، وجذور ضاربة في القدم تحت المياه الخضراء المتلألئة. وادي سديم... أجمل أماكن تلك المنطقة في ذلك الزمن، حيث كانت هذه الأغصان والأشجار خضراء يانعة ذات يوم والورود متفتحة...

تكشف الأبحاث الجيولوجية عن الناحية الديناميكية لكارثة قوم لوط، تقول هذه الدراسات: إن الزلزال الذي دمر القوم جاء نتيجة لتشكل صدع طويل في الأرض (خط التصدع) على بعد ١٩٠ كم ليشكل حوض نهر الشريعة، يشير انحدار نهر الشريعة نزولاً حوالي







صورة علوية، تظهر فيها الجبال حول بحيرة لوط.

180 كم، بالإضافة إلى انخفاض البحر الميت بمقدار 400 متر عن سطح الأرض إلى أن حادثاً جيولوجياً على جانب من الأهمية قد اتخذ مجراه في حقبة من الزمن.

تشكل البنية المثيرة لنهر الشريعة وبحيرة لوط جزءاً صغيراً فقط من الشق أو الصدع الذي يمر من هذه المنطقة من الأرض، لقد اكتُشِفَ مكان وطول هذا الصدع في أيامنا هذه فقط.

يبدأ الصدع من مناطق جبال طوروس ويمتد جنوباً حتى بحيرة لوط، ثم يواصل امتداده خلال الصحراء العربية ليصل إلى خليج العقبة، ثم يستمر عبر البحر الأحمر لينتهي في إفريقيا، وعلى امتداد هذا الصدع لوحظت أنشطة بركانية، حيث يمكن ملاحظة الحجارة البازلتية والبركانية في جبل الجليل في فلسطين وفي المناطق المنبسطة والمرتفعة من الأردن وفي خليج العقبة والمناطق المجاورة.

بقايا المدينة التي انزلقت إلى بحيرة لوط، والتي عثر عليها على ضفاف البحيرة وتدل هذه البقايا على أن قوم لوط كانوا على مستوى معيشي راقٍ.



لقد ألهبت قصةُ دمار قوم لوط خيالَ العديد من الرسامين، كما يظهر في الصورة أعلاه.

تدل هذه الآثار والمعلومات الجيولوجية مجتمعة على أن بحيرة لوط قد شهدت كارثة جيولوجية مخيفة، كتب وورنر كيلر:

غاص وادي سديم الذي يتضمن سدوم وغومورا مع الشق العظيم، الذي يمر تماماً في هذه المنطقة، إلى أعماق سحيقة في يوم واحد، حدث هذا الدمار بفعل هزة أرضية عنيفة صاحبتها عدة انفجارات، وأضواء نتج عنها غاز طبيعي وحريق شامل، تحررت القوى البركانية التي كانت هامدة في الأعماق على طول الصدع من ذلك الغور، ولا تزال فوهات البراكين الخامدة تبدو ظاهرة في الوادي العلوي من الأردن قرب باشان، بينما تترسب الحمم البركانية وتتوضع طبقات عميقة من البازلت على مساحة واسعة من السطح الكلسي، تدل هذه الحمم المتحجرة وطبقات البازلت على تعرض هذه المنطقة إلى هزة عنيفة وبركان ثائر في زمن من الأزمنة." [17]

أما مجلة "ناشونال جيوغرافي National Geographic الجغرافية فقد حررت هذه المعلومات في كانون الأول من عام 1957:

يرتفع قمة جبل باتجاه البحر الميت، لم يجد أحد حتى الآن المدن المدمَّرة: سدوم وغومورا، إلا أن الباحثين يرون أنهما كانتا في وادي سديم أمام المنطقة الصخرية، قد تكون مياه البحر الميت غمرتها بعد زلزال مدمر (18).

مدينة بومبي لاقت نفس النهاية

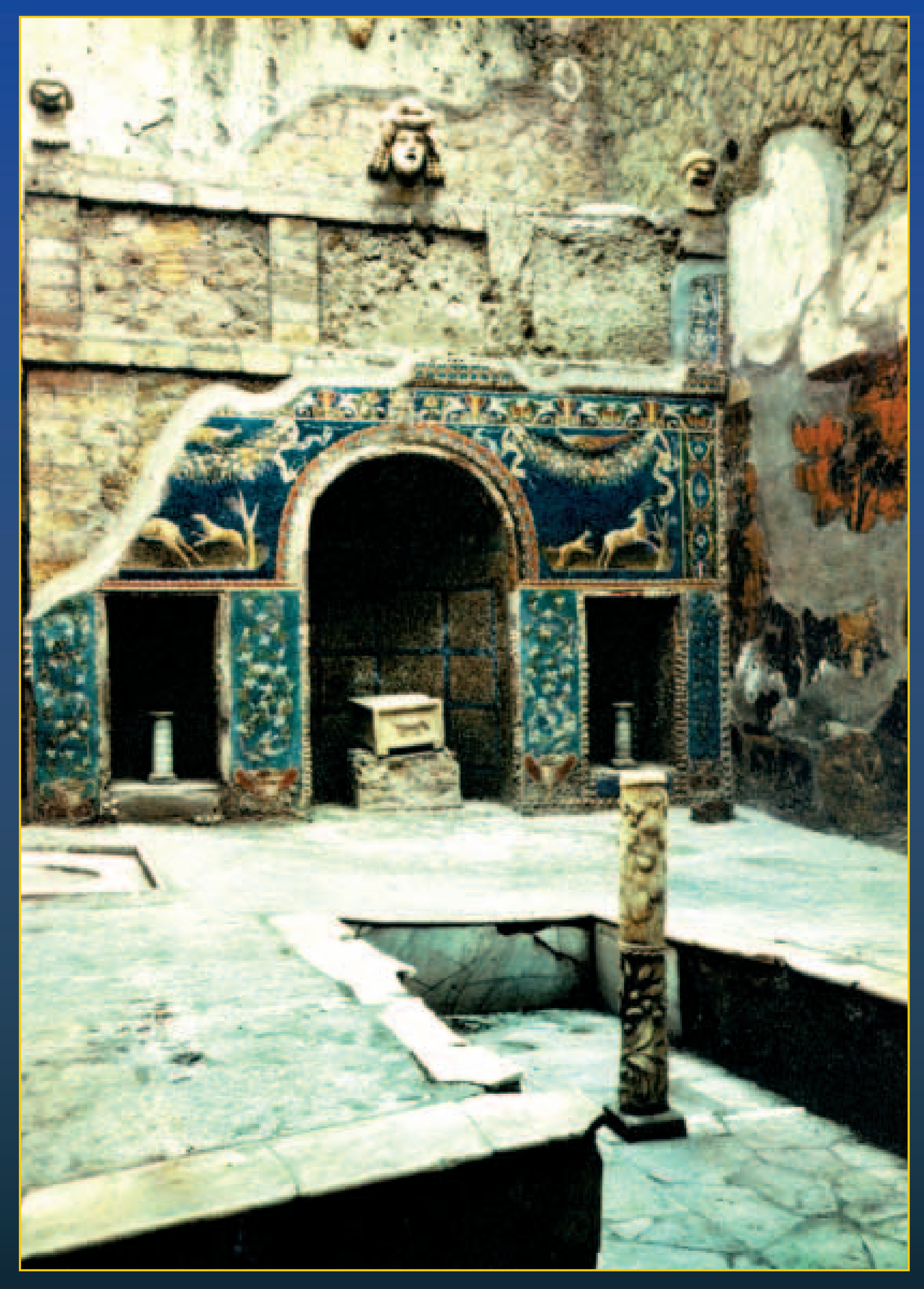
يخبرنا الله في الآيات الآتية أن سنن الله وقوانينه لا تتغير:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّىءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ فاطر: 42—43.

نعم **﴿ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾**، فكل من يعارض قوانينه ويعلن العصيان عليه ستطبق عليه نفس القوانين السماوية. بومبي "Pompei"، رمز انحلال الامبراطورية الرومانية، لقد كانت هذه المدينة تمارس ممارسات قوم لوط... فكانت نهايتها مشابهة لنهاية قوم لوط.

يقترن بركان فيزوف باسم إيطاليا وخاصة نابولي، بقي هذا البركان هادئاً ألفي سنة، سمي هذا البركان " بجبل النذير"، ولم يسم كذلك عبثاً، لقد كانت الكارثة التي دمرت سدوم وغومورا شبيهة جداً بهذه التي دمرت بومبي.

إلى اليمين من فيزوف تقع مدينة نابولي، وإلى الشرق تقع بومبي، بركان ضخم أخذ سكان هذه المدينة بحممه ورماده منذ ألفي سنة، كانت الفاجعة مفاجئة جداً لدرجة أنها أصابتهم وهم يمارسون نشاطهم اليومي... في منتصف النهار، وبقيت المدينة على حالها منذ ألفي سنة وحتى يومنا هذا، وكأن الزمان فيها قد توقف.



صورة توضح حياة الازدهار والرخاء التي كانت تتمتع بها مدينة بومبي قبل هلاكها.

لم تمح بومبي عن وجه الأرض هكذا دونما سبب، لاشك أن في محوها من الوجود عبر وعظات تشير السجلات التاريخية إلى أن هذه المدينة كانت مركزاً لممارسة الشهوات الشاذة، كانت مشهورة بالبغاء، لدرجة أنه لم يكن من الممكن عد وإحصاء عدد بيوت الدعارة فيها لم يكن يحصى، كانت الأعضاء الذكرية والعياذ بالله، تعلق على أبواب المواخير بحجمها الطبيعي، وحسب هذه التقاليد التي تعود جذورها إلى الديانة الميثرية (نسبة إلى الإله ميثرا الفارسي)، فإن الأعضاء الجنسية وحتى الممارسة الجنسية يجب أن تكون على الملأ...

إلا أن الحمم البركانية التي أرسلها فيزوف محت المدينة عن سطح الأرض، والمثير في الموضوع هو أنه لم ينجُ أحد من هذه الكارثة بالرغم من الانفجار العظيم الذي أحدثه البركان فيزوف، لقد بدا وكأنهم لم يلحظوا الكارثة، بل كأن المفاجأة قد صعقتهم وأذهلتهم، لقد تحجرت عائلة بكاملها كانت تتناول طعامها تماماً في تلك اللحظة، عدد كبير من الأزواج تحجروا أثناء تزاوجهم... كما لوحظ وجود أزواج من نفس الجنس وأزواجاً من فتيان وفتيات في سن مبكرة!! بعض الوجوه التي استخرجت من تحت الأرض كانت كاملة لم يصبها البلى، أما التعابير التي ظهرت على الوجوه فقد كانت الذهول المطلق.

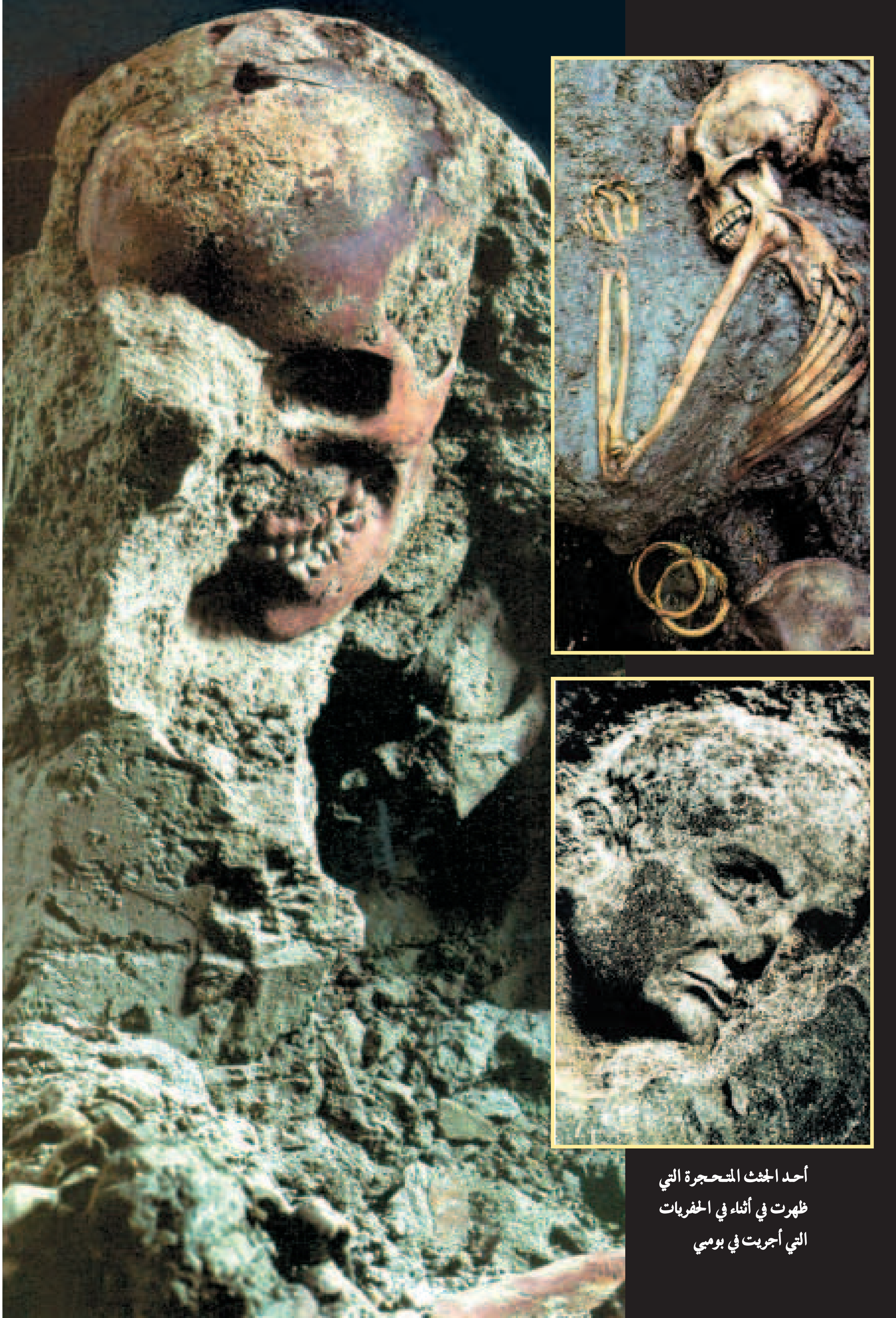
وهذا هو الجانب المذهل في الكارثة! كيف أنتظر الآلاف من الناس أن يفاجئهم الموت دون أن يروا أو يسمعوا شيئا؟

تفسير ذلك أن اختفاء مدينة بومبي كان شبيهاً بالدمار الذي ذكره القرآن، لأن القرآن يذكر" الإبادة المباغتة" عند رواية مثل هذه الأحداث، ففي سورة يس تقول لنا الآيات أن أهل المدينة ماتوا جملة في دقيقة واحدة:

﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ يس: 29.

وفي الآية 31 من سورة القمر مرة أخرى نجد تركيزاً على "الإبادة اللحظية" عندما ذكر هلاك ثمود:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ القمر: 31.



أحد الجثث المتحجرة التي
ظهرت في أثناء في الحفريات
التي أجريت في بومبي

مثال آخر على الجثث المتحجرة التي ظهرت أثناء التنقيب في بومبي .



أمثلة أخرى عن الجثث الإنسانية المتحجرة والتي ظهرت في بومبي.
الصورة اليسارية مثال حي ومعبر عن الهلاك المباغت الذي أصاب السكان.





لقد وقع الموت على سكان بومبي تماماً كما جاء في الآيات السابقة.

بالرغم من كل هذا لم يطرأ الكثير من التغيير على منطقة بومبي اليوم، فمناطق الفسق والفجور في نابولي لا تقل عن فسق مدينة بومبي، جزيرة كابري هي القاعدة التي يقيم فيها الشاذون جنسياً والعراة، في الإعلانات التجارية تظهر كابري على أنها "جنة الشاذين". وليست كابري الإيطالية هي الوحيدة في العالم، فالانحلال الأخلاقي آخذ بالانتشار، والناس يُصِرُّونَ على عدم الاعتبار من تجارب الأوَّلين المخيفة ونهاياتهم المفجعة.

الفصل الرابع

قوم عاد وأوبار، "جزيرة الرمال"

*﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ الحاقة: 6-8 .*

قوم عاد... قوم من الأقوام الآخرين الذين أهلكوا وذكرهم القرآن في العديد من الآيات، جاء ذكرهم بعد قوم نوح، أرسل الله هوداً إلى قومه فدعاهم إلى عبادة الله وحده دون شركاء والى طاعته، واجه القوم هوداً بالعداء واتهموه بالحماقة والكذب، وأنه يحاول تغيير دين الآباء.

تسرد لنا الآيات في سورة هود كل ما دار بين هود وقومه بالتفصيل:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ الله واشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ

هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوآ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيامَةِ أَلآ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ هود: 50—60.

وفي سورة الشعراء نجد شيئاً من التركيز على بعض الخصائص التي كان يختص بها هؤلاء القوم نتبينها من خلال مخاطبة رسولهم لهم: ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** ﴾ وكانوا يتصرفون بقسوة ويلحقون بالناس الأذى؛ وعندما أنذرهم نبيهم من سوء عاقبة أعمالهم قالوا له: ﴿ **إِنْ هَذَآ إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ** ﴾. كانوا مطمئنين جداً إلى أنهم لن يصابوا بأي أذى:

﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ الشعراء: 123—140.

لقد هلكت عاد... أولئك القوم الذين كذبوا رسولهم وأعلنوا العصيان على خالقهم، عاصفة رملية عظيمة أبادتهم عن سطح الأرض ﴿ **كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا** ﴾ هود: 68 .

الاكتشافات الأثرية في مدينة إِرَمْ

ظهرت في بدايات عام 1990 عناوين في صحف عالمية مشهورة تعلن عن "اكتشاف المدينة العربية الأسطورية"، " اكتشاف المدينة العربية التي تتكلم عنها الأساطير"، "أوبار، جزيرة

الرمال"، المثير للاهتمام أن ما أظهرته المكتشفات الأثرية قد ذكره القرآن الكريم منذ أكثر من 14 قرناً، لم يتمكن أولئك الذين كانوا يظنون أن قصة عاد التي ذكرها القرآن ما هي إلا أسطورة يتناقلها البدو، وأن مكانها لن يظهر على وجه الأرض من إخفاء دهشتهم وذهولهم لهذه الاكتشافات، لقد أثارت هذه القصة التي لم تكن تعرف إلا من خلال روايات البدو الكثيرَ من الفضول والاهتمام.

كان نيكولاس كلاب Nicholas Clapp الأثري الشاب هو الذي وجد المدينة الأسطورة التي روى عنها القرآن الكريم[19] وبوصفه من هواة تاريخ العرب ومنتجي الأفلام الوثائقية، وجد كلاب كتاباً ممتعاً عن تاريخ العرب في أثناء أبحاثه في المنطقة، كان هذا الكتاب " Arabia felix" من تأليف الباحث الانجليزي بيرترام توماس Bertram Thomas الذي وضعه عام 1932. و Arabia felix هو اللقب الروماني للجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية والتي تتضمن اليوم اليمن وعمان، أطلق اليونانيون على هذه المنطقة اسم "Eudaimon Arabia" أما البحاثة العرب في القرون الوسطى، فقد كانوا يطلقون عليه اسم "اليمن السعيد".[20]

كل هذه الأسماء تعني "المنطقة العربية المحظوظة"، لأن الناس الذين كانوا يقطنون في تلك المنطقة في الأزمان الغابرة كانوا أكثر الناس حظاً في زمنهم، هذا جيد، ولكن لماذا؟

لقد كان جزء من حظهم السعيد يتمثل في موقعهم الاستراتيجي على خط تجارة البَهارات والتوابل والذي يتوسط بين الهند والمناطق الشمالية من الجزيرة العربية، بالإضافة إلى ذلك كان سكان هذه المنطقة يتاجرون بالبَخُور الذي كانوا يستخلصونه من شجره النادر، ولما كان لهذا النبات شأن كبير عند الأقوام العربية في ذلك الزمان، حيث كان يستخدم في طقوسهم الدينية، فقد كانت توازي قيمة الذهب.

يصف الباحث الانجليزي توماس هذه القبائل "المحظوظة" وصفاً مطولاً، ويدعي أنه وجد آثار مدينة قديمة كانت إحدى هذه القبائل قد أنشأتها،[21] كانت هذه المدينة تعرف على لسان البدو باسم "أوبار"، وفي إحدى رحلاته قام بعض من البدو الذين يعيشون في المنطقة بإطلاعه



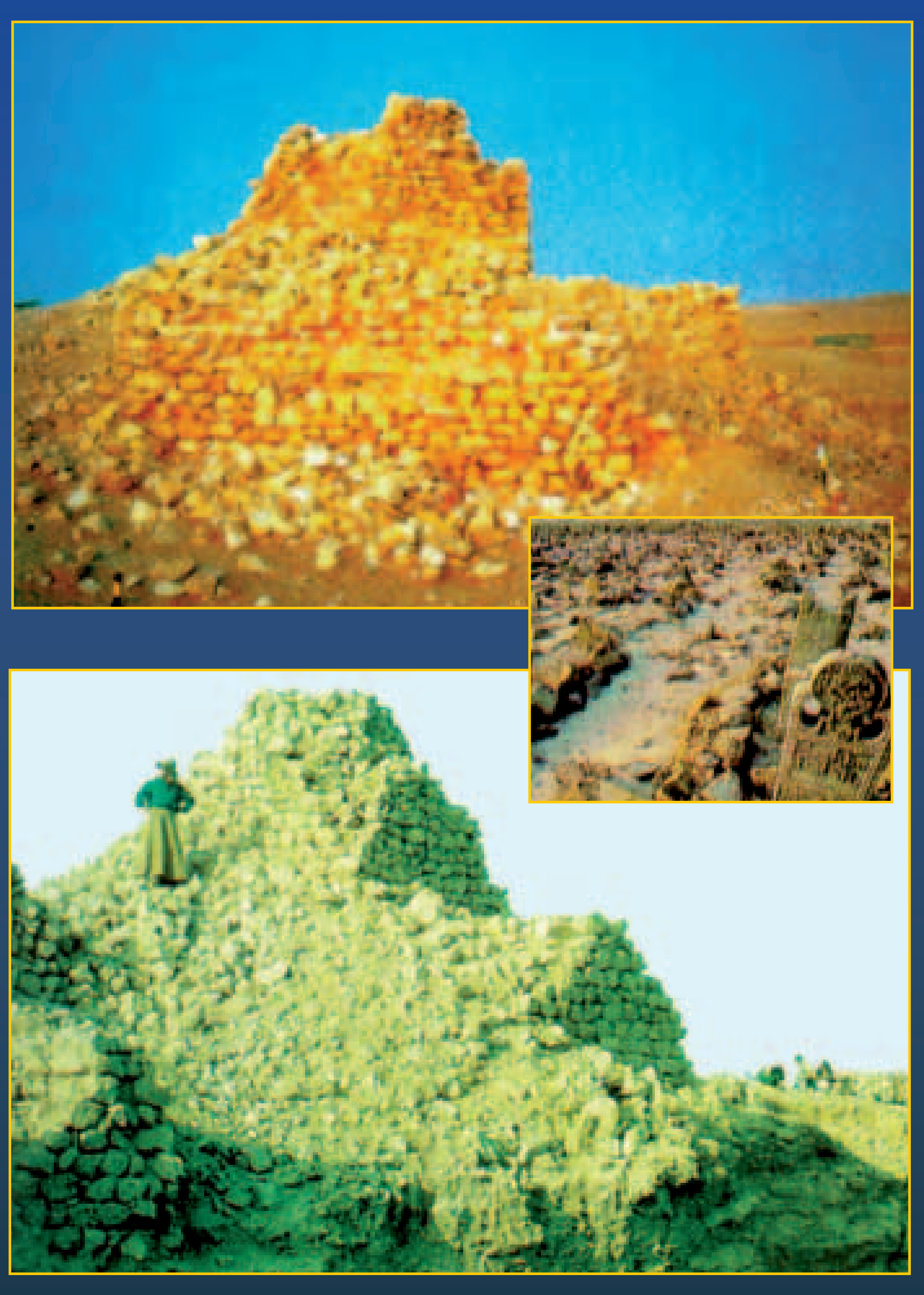
وجدت بقايا مدينة أوبار، حيث عاشت عاد في إحدى المناطق بالقرب من سواحل عمان.

على آثار واضحة، وقالوا له: إن هذه الآثار تقود إلى مدينة أوبار، إلا أن توماس الذي أبدى اهتماماً كبيراً بالموضوع توفي قبل أن يتم أبحاثه.[21]

لم يضيع "كلاب" وقتاً بعد أن اطلع على كتاب توماس، واقتنع بوجود المدينة الضائعة الموصوفة في ذلك الكتاب، وبدأ بمتابعة البحث.

سار كلاب في طريقين ليبرهن على وجود مدينة أوبار، تتبع أولاً آثار المدينة التي أخبرت عنها قبائل البدو، ثم قدم طلباً إلى وكالة ناسا من أجل الحصول على صور للمنطقة من الفضاء، وبعد معركة طويلة أفلح في الحصول على تفويض يؤهله للحصول على صور لهذه المنطقة.[22]

تابع كلاب جهوده وأخذ يدرس الخرائط والمخطوطات القديمة التي وجدها في جامعة هانتينغتون في كاليفورنيا، كان هدفه أن يصل إلى خريطة قديمة لهذه المنطقة، وبعد بحث قصير وجد واحدة، كانت خارطةً رسمها الجغرافي المصري- الإغريقي "بطليموس" عام 200



الكثير من الأعمال الفنية ومعالم الحضارة الراقية مسحت عن وجه الأرض في أوبار حسب رواية القرآن الكريم، ولم يبق إلى اليوم سوى آثارها.



الحفريات في أوبار.

ميلادي، يظهر عليها موقع لمدينة قديمة في المنطقة والطرق التي تؤدي إلى هذه المدينة.

في هذه الأثناء وصلته أخبار عن أن الصور التي طلبها من ناسا قد تم تصويرها، وفي الصور ظهرت ممرات قوافل كان من المتعذر تحديدها على الأرض بالعين المجردة، ولا يمكن رؤيتها بشكل كامل إلا من السماء، وبمقارنة هذه الصور مع الخريطة القديمة التي وجدها كلاب، توصل إلى النتيجة التي كان يبحث عنها: إن ممرات القوافل التي تظهر على الصور الفضائية تتطابق مع الممرات التي توجد على الخارطة القديمة، كانت المحطة الأخيرة لهذه الممرات منطقة واسعة، من الواضح أنها كانت في يوم من الأيام مدينة قديمة.

وأخيراً تم اكتشاف المنطقة التي كانت في أحد الأيام مسرحاً لقَصص يرويها البدو، بعد ذلك بوقت قصير بدأت الحفريات الأثرية عملها وأخذت آثار المدينة القديمة تظهر من تحت الأرض شيئاً فشيئاً، وهكذا سميت هذه المدينة القديمة "أوبار، جزيرة الرمال".

ولكن ما الذي يثبت أن هذه المدينة هي عاد التي ذكرها القرآن الكريم؟

موقع عاد كما كشفته صور القمر الصناعي. يبدو في الصورة مكان تقاطع طرق القوافل وهي تشير إلى أوبار.



1ـ أوبار، لم يكن من الممكن مشاهدتها سوى من الأقمار الصناعية قبل الحفريات.

2ـ ظهور مدينة على عمق 12 متراً بعد إجراء الحفريات.

منذ أن بدأت آثار المدينة بالظهور تبين أن هذه المدينة هي مدينة ″ عاد وإرم ذات العماد″ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، لأن من بين الآثار التي ظهرت من تحت الأرض كانت تلك الأبراج التي ذكرها القرآن، يقول أحد أعضاء البعثة الأثرية الدكتور زارينز:Dr.Zarins إنَّ أكبر دليل على أن هذه المنطقة التي ينقبونها هي إِرَم، مدينة عاد التي ذكرها القرآن، هو تلك الأبراج والأعمدة التي تميز منطقة أوبار هذه:

﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ** ﴾ الفجر: 6—8.

قوم عاد

حتى الآن أمكن إثبات أن أوبار هي مدينة إرم التي ذكرها القرآن الكريم، وحسب القصة القرآنية: فإن سكان هذه المدينة كذبوا نبيَّهم هوداً عليه السلام الذي جاء إليهم بالرسالة وأنذرهم عقاب الله، وهكذا استحقوا الإبادة.

إلا أنه من العجيب حقاً أن هوية هؤلاء القوم لا زالت مَحَطَّ جدل، فالسجلات التاريخية لا يوجد فيها أي ذكر لقوم مثل هؤلاء ؛ كانوا على درجة عالية من الحضارة، والأكثر غرابة هو أنه لم يرد حتى مجرد أسمهم في السجلات التاريخية.

من جهة أخرى، قد يبدو عدم وجود ذكر لهؤلاء القوم في سجلات الحضارات القديمة أمراً طبيعياً، السبب في ذلك: هو أن هؤلاء القوم عاشوا في جنوبي الجزيرة العربية، وهي منطقة بعيدة عن منطقة ″وادي الرافدين″ والشرق الأوسط، ولم يكن يصلها بهم أكثر من علاقات محدودة. من الطبيعي إذن أن يُغفل ذكر منطقة لا تكاد تُعرف في السجلات التاريخية، ومع ذلك فقد كانت شعوب الشرق الأوسط تتداول أخبار ″عاد″.

من أهم أسباب عدم وجود هذه المدينة ضمن السجلات التاريخية المكتوبة: هو أن الاتصال الكتابي لم يكن شائعاً في هذه المنطقة في ذلك الزمن،من الممكن أن نقول أن قوم عاد شكلوا دولة،ولكن لم تسجل هذه الدولة في السجلات التاريخية. ولو أن هذه الدولة استمرت لوقت أطول قليلاً فقد يكون ممكناً أن نعرف عنها الأكثر في أيامنا هذه.

إذن: لا توجد سجلات مكتوبة عن عاد، إلا أنه بالإمكان أن نجد معلومات هامة عن الأقوام المنحدرة عنهم،أي عن أحفادهم وبذلك يمكننا أن نأخذ من خلالهم فكرة عن عاد أنفسهم.

الحضارمة، أحفاد عاد

المنطقة الأولى التي يجب أن تتوجه إليها الأنظار في أثناء البحث عن حضارة عاد والحضارات المنحدرة عنها هي جنوبي اليمن، حيث وجدت "أوبار جزيرة الرمال"، والتي كان يشار إليها "باليمن السعيدة"، وُجِدَ في جنوب اليمن أربعة من الأقوام قبل وقتنا هذا حملوا اسم "العرب السعداء أو المحظوظون"، هؤلاء الأقوام هم أهل حَضْرَمَوت، وأهل سبأ، وأهل ميناع، وأهل قتباء. هذه الأقوام حكمت في وقت واحد في مناطق متقاربة من بعضها.

العديد من العلماء المعاصرين يقولون: إن عاداً قد دخلت في مرحلة تحول ثم ظهرت من جديد على مسرح التاريخ، يعتقد الدكتور ميخائيل رحمن الباحث في جامعة أوهايو أن قوم عاد هم أجداد الحضارمة، أحد الأقوام الذين عاشوا في جنوب اليمن، كان الحضارمة الذين ظهروا حوالي سنة 500 قبل الميلاد، أقل القبائل شهرة بين الذين عرفوا "بالعرب المحظوظين". حكم هؤلاء القوم جنوب اليمن لفترة طويلة من الزمن إلى أن اختفوا نهائياً عام 240 ميلادي بعد فترة من الانحلال لم تكن بالقصيرة.

تلمح كلمة حضرمي إلى أن هؤلاء القوم قد يكونون أحفاد عاد، يشير الكاتب الإغريقي بليني الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، إلى هذه القبيلة بكلمة "أدراميتاي"– وتعني الحضرمي.[23] نهاية الاسم الإغريقي هي ملحق اسمي، وجذر الاسم هو "أدرام" الذي يعيد إلى الذهن في الحال احتمال كونه تحريفاً عن "عاد–إرَمَ" تلك المذكورة في القرآن.

يبين الجغرافي الإغريقي بطليموس (100–150 ميلادي) على أن الجزء الجنوبي من الجزيرة

العربية هو المكان الذي عاش فيه الحضارمة، وهذه المنطقة تعرف بحضرموت حتى يومنا هذا، وتقع العاصمة شَبْوة، إلى الغرب من وادي حَضْرَمَوت، وحسب ما تروي القَصص والأساطير فإن قبر هود عليه السلام الذي أرسل إلى عاد يوجد في حَضْرَمَوت.

من الدلائل الأخرى التي تشير إلى أن حضرموت هي امتداد لعاد، الثروة التي كان يرفل فيها القوم، كان الإغريق يعرفون الحضارمة على أنهم "أغنى شعوب العالم"، تقول السجلات التاريخية: إنَّ الحضارمة تقدموا كثيراً في زراعة البَخُور، إحدى أثمن النباتات في ذلك الوقت، كما أنهم أوجدوا لها المزيد من الاستخدامات، لقد ازدهرت زراعة هذه النبتة في أيامهم أكثر من ازدهارها في أيامنا هذه.

إن ما أظهرته الحفريات الأثرية في مدينة شَبْوة عاصمة حَضْرَمَوت كان مثيراً للغاية كان من الصعب جداً على الجيولوجي في هذه الحفريات والتي بدأت عام 1975، أن يصل إلى آثار المدينة بسبب عمق الكثبان الرملية. إلا أن الاكتشافات التي ظهرت في نهاية أعمال الحفر كانت مدهشة؛ فقد ظهرت المدينة القديمة المدفونة تحت الأرض كأعظم ما اكتشف حتى الآن وأكثره إدهاشاً، كانت المدينة المسورة التي كشف عنها التنقيب من أكبر وأوسع المدن اليمنية التي عرفتها هذه المنطقة، ويدل قصرها على أنه كان بناء فخماً بحق.

مما لا شك فيه أن التفكير المنطقي يقول: بأن الحضارمة قد ورثوا الفن المعماري من أجدادهم قوم عاد، لقد قال هود لقومه وهو يعظهم:

﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** ﴾ الشعراء: 128—129.

صفة أخرى مدهشة تميز الأبنية التي وجدت في شَبْوة هي الأعمدة المزخرفة، تبدو الأعمدة التي اكتشفت في شَبْوة فريدة تماماً لكونها مستديرة ومنتظمة ضمن رواق معمد دائري، بينما تبدو الأعمدة في مناطق أخرى من اليمن ضخمة مربعة على شكل مسلة، لقد ورث أهل شَبْوة هذا التراث من أجدادهم عاد، قام البطريارك الإغريقي البيزنطي فوتيوس

Photius بطريارك اسطنبول في القرن التاسع الميلادي ببحث واسع عن العرب الجنوبيين وأنشطتهم التجارية؛ لأنه استطاع الوصول إلى مخطوطات إغريقية قديمة لم تعد موجودة في وقتنا الحاضر، وخاصة كتاب "Agatharacides" (132 قبل الميلاد)، والذي يتعلق بالبحر الأحمر. يقول فوتيوس في أحد مواضيعه: "يقال: إنهم (العرب الجنوبيون) قد بنوا أعمدة كثيرة مغطاة بالذهب أو مصنوعة من الفضة. أن طريقة تثبيت هذه الأعمدة تستحق التأمل"[24]

بالرغم من أن مقولة فوتيوس Photius لا تشير مباشرة إلى حَضْرَمَوت، إلا أنها تعطي فكرة عن الغنى والبراعة الفائقة التي كان يتصف بها القوم الذين عاشوا في هذه المنطقة، يصف الكاتبان الإغريقيان الكلاسيكيان بليني Pliny وسترابو Strebo هذه المدن على أنها "مزينة بالمعابد الفخمة والقصور الجميلة".

عندما نفكر بأن أصحاب هذه المدن هم من سلالة عاد ندرك تماماً: لماذا عرف القرآن موطن عاد على أنه ﴿إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ﴾ الفجر: 7.

ينابيع عاد وحدائقها

يمر المسافر إلى جنوب الجزيرة العربية بصحراء قاحلة مترامية الأطراف، تغطي الرمال معظم هذه المنطقة، عدا المدن والمناطق التي شجرت حديثاً، هذه الصحارى كانت موجودة هناك لمئات أو حتى لآلاف السنين.

إلا أن القرآن الكريم يعطينا معلومات ممتعة عن هذه المنطقة من خلال الآيات التي تحكي عن عاد:

﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * واتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الشعراء: 131—135.

ولكننا لاحظنا أن أوبار اليوم التي اعتمدت كموطن عاد وهي مدينة إرم، والمناطق

الأخرى التي من المحتمل أنها كانت موطناً لهم أيضاً، مغطاة كلياً بالرمال، فلماذا استخدم هود هذه الكلمات وهو يعظ قومه إذن؟

يختبئ الجواب داخل سجل التغيرات المناخية، تكشف السجلات التاريخية لهذه المنطقة حقيقة هامة: وهي أن هذه الصحراء الواسعة كانت في يوم من الأيام حدائق غناء، وكانت أرضُها شديدةَ الخصوبة، كانت البساتين الخضراء والينابيع العذبة تحتل مساحة واسعة منها، كما يروي لنا القرآن منذ أقل من عدة آلاف من السنين، وقد تنعم أهل هذه المنطقة بأَنْعُمِ الله عليهم، كانت الغابات تخفف من قسوة المناخ، فقد كانت الصحراء موجودة، ولكنها لم تكن بهذا الاتساع.

ويقدم لنا جنوب الجزيرة دلائل هامة على منطقة قوم عاد، والتي يمكن أن تلقي بعض الضوء على الموضوع، هذه الدلائل تقول لنا: إن سكان هذه المنطقة كانوا يستخدمون أساليب متطورة جداً في السقاية، وهذه الأساليب كانت لهدف واحد فقط هو الزراعة، التي كان يمارسها سكان هذه المنطقة والتي لم تعد صالحة للحياة اليوم.

كشفت صور الأقمار الصناعية أيضا عن نظام ري واسع في المدينة القديمة، يتألف من قنوات وسدود قديمة استخدمت للري والتي قدر أنها كانت تزود 200,000 إنسان من سكان هذه المنطقة،[25] يقول "دو" Doe أحد الباحثين في المنطقة: " كانت المنطقة حول مأرب خصبة جداً، لدرجة أنه يمكن الاعتقاد بأن مجمل المنطقة التي تمتد بين مأرب وحضرموت قد كانت فيما مضى موطناً لحضارة مزدهرة. "[26]

يصف الكاتب الإغريقي بليني هذه المنطقة بخصوبتها العالية وجبالها الشجرية التي يغطيها الأشجار والضباب وأنهارها وغاباتها المتصلة، تضمنت بعض المخطوطات التي وجدت في بعض المعابد القديمة الواقعة بالقرب من شَبْوة عاصمة حَضْرَمَوت كتاباتٍ تشير إلى صيد الحيوانات في هذه المنطقة وتقديم بعضها كأضحيات، يشير هذا في مجمله إلى أن هذه المنطقة كانت مغطاة

بالأراضي الخصبة إلى جانب الرمال الصحراوية.

يمكن معرفة السرعة التي تزحف بها الصحراء من خلال بعض الأبحاث التي قام بها معهد سميثسونيان Smithosonianفي الباكستان، حيث تحولت منطقة خصبة معروفة في القرون الوسطى إلى صحراء رملية بسبب الكثبان التي بلغ ارتفاعها 6 أمتار، وقد اكتشف أن الصحراء كانت تمتد بمعدل 15 سم يومياً، بمعدل السرعة هذا تبتلع الرمال الأبنية الشاهقة، وكأنها لم تظهر إلى الوجود أصلاً، مثال ذلك الحفريات التي أجريت في تيمنة في اليمن عام 1950 وظهرت مساكن وأبنية كاملة والتي عادت ودفنت بالكامل ، الأهرامات المصرية أيضاً كانت مغطاة تماماً تحت الرمال في يوم من الأيام، ولم تخرج إلى الضوء إلا بعد حفريات واستقصاءات دامت وقتاً طويلاً، باختصار: من الواضح أن هذه الأراضي الصحراوية كانت ذات مظهرٍ مختلفٍ فيما سبق من الأزمنة.

كيف هلكت عاد؟

يذكر لنا القرآن أن عاداً قد أهلكت بريح صرصر عاتية وأنها استمرت سبع ليال وثمانية أيام فأهلكت عاداً على بَكْرَةِ أبيهم.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي ونُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصَراً فِي يَومِ نَحْسٍ مُسْتَمِّرٍ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهم أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ القمر: 18—20.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَها عَلَيْهِم سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرى القَوْمَ فِيها صَرْعَى كَأَنَّهم أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ الحاقة: 6—7.

بالرغم من التحذير والإنذار، إلا أن القوم لم يستمعوا واستمروا في تكذيب رسولهم، كانوا في ضلالهم يتمادون، حتى إنهم لم يكونوا ليدركوا ماذا يحدث عندما رأوا العذاب يقترب منهم واستمروا في تكذيبهم:

﴿فَلمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ



تمتلئ المنطقة التي كانت تعيش فيها عاد بالكثبان الرملية اليوم.

﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الأحقاف: 24.

لقد رأى القوم سحابة العذاب التي كانت تقترب منهم، إلا أنهم لم يفهموا ما بها وظنوا أنها تحمل لهم الأمطار، وهذه دلالة هامة عن الكيفية التي كانت تقترب فيها الكارثة من القوم، لأن الزوبعة الرملية أو الإعصار الحلزوني الذي يلف الرمال الصحراوية يبدو من البعيد وكأنه سحابة ممطرة، إذن فمن الممكن جداً أن تكون عاد قد خدعت بمظهر هذه السحابة ولم تنتبه لحقيقة الكارثة. يقدم "دو" وصفاً لهذه العواصف الرملية (والتي يبدو أنه وصف من خلال تجربة شخصية): " العلامة الأولى للعواصف الرملية هي اقتراب جدار هوائي محمل بالرمال، قد يصل ارتفاعه إلى آلاف الأقدام، يرتفع ويتحرك بفعل تيارات شديدة القوة". [27]

لقد كشف عن أوبار التي يظن أنها من بقايا "جزيرة الرمال" بعد التعمق عدة أمتار في الرمال، يبدو أن الريح العاتية التي استمرت سبع ليال وثمانية أيام قد كدست أطناناً من الرمال

فوق المدينة، ودفنت الناس أحياء تحت الرمال، تشير الحفريات التي أجريت في أوبار إلى نفس الاحتمال، كذلك جاء في المجلة الفرنسية "Ca M'Interesse": لقد دفنت أوبار تحت 12 متراً من الرمال بسبب عاصفة رملية"[28]

أكثر الدلائل أهمية على أن عاداً قد دفنت في الرمال كلمة "الأحقاف" التي ذكرها القرآن الكريم في تحديدٍ لمكان عاد:

﴿وَاذْكُر أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الأحقاف: 21.

والأحقاف تعني بالعربية "الكثبان الرملية"، ومفردها "حِقْفٌ" أي: الكثيب الرملي، وهذا يعني أن عاداً كانت تستوطن منطقة مليئة بالكثبان الرملية، وهذا ما يقدم دليلاً منطقياً على أن عاداً قد دُفنوا تحت وطأة عاصفة رملية حسب بعض التفاسير: فقدت كلمة الأحقاف معناها "الكثبان الرملية"، وأصبحت اسماً لمنطقة في جنوبي اليمن حيث عاشت عاد، إلا أن هذا لا يغير من حقيقة المعنى الذي تحمله الكلمة، ولكن قد يكون هذا المعنى "الكثبان الرملية" خاصاً بأولئك القوم الذين كانت المنطقة في زمانهم تعج بها.

لا بد وأن تكون العاصفة التي ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُم أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ قد أبادت قوم عاد على بَكْرَةِ أبيهم بوقت قصير جداً، أولئك القوم الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعيشون حياة رغيدة، يشيدون الأبنية ويبنون السدود والقنوات ويزرعون الأرض، كل هذا دفن تحت الرمال كما دفنت المدينة وسكانها أحياء، وبعد هلاك القوم امتدت الصحراء وغطت كل أثر من آثارهم.

والنتيجة هي أن الكشوف الجيولوجية والتاريخية تشير إلى أن عاداً ومدينتهم إرم موجودة فعلاً وأنها هلكت كما ذكر القرآن الكريم، وبعد أبحاث لاحقة تمت استعادة آثار هذه المدينة من تحت الرمال.

على الإنسان عندما يرى هذه الآثار أن يأخذ العبرة التي يؤكد عليها القرآن، لقد قالت عاد في ضلالها:

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ولكن ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فصلت: 15.

على الإنسان أن يحتفظ بهذه الحقائق الثابتة في ذهنه طوال الوقت، ويدرك أن الله هو الأقوى والأعظم دائماً، ولا يمكن للإنسان أن يحقق أيَّ نجاح أو ازدهار إلا بعبادته.

الفصل الخامس

ثمود

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ القمر: 23-26.

يروي لنا القرآن أن ثَمُوْداً كذبوا واستهتروا بالنذر التي أرسلها الله إليهم مثل عاد فلاقوا نفس المصير، وقد ظهرت إلى الضوء اليوم بفضل الأبحاث والدراسات التاريخية والجيولوجية أشياءُ لم تكن معروفة قبل إلى الضوء، مثل المنطقة التي أقام بها قوم ثمود، والبيوت التي بنوها، ونمط الحياة التي كانوا يعيشونها، إن ثمود التي ذكرت في القرآن الكريم هي حقيقة تاريخية أثبتتها العديد من الكشوف الأثرية.

قبل النظر إلى الكشوف الأثرية التي تتعلق بثمود، من المفيد العودة إلى قصة هؤلاء القوم في القرآن الكريم لنقرأ مواجهتهم مع رسولهم، والقرآن كتاب يخاطب كل الأزمنة ، لذلك كان تكذيب ثمود لرسولهم من الحوادث التي سردها القرآن ليتعظ بها كل الناس على مر العصور.

تبليغ صالح (ع) للرسالة

أرسل الله صالحاً(ع) إلى ثمود، وصالح هو فرد من أفراد القوم، إلا أن قومه لم يكونوا يتوقعون أن يأتيهم بدين الحق، لذلك فقد فوجئوا عندما سمعوا دعوته وأنه هجر ما كانوا عليه من الانحراف والضلال، كان أول ما جابهوه به أن قذفوه وشتموه:

﴿وإلى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوآ إِلَيْه إِنَّ رَبِي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَآ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْه مُرِيبٍ﴾ هود: 61—62.

القليل من القوم استجابوا لصالح، إلا أن غالبية القوم لم يقبلوا دعوته، وكان أشدَّهم عداوةً عِلْيَةُ القومِ وزعماؤه، غضبوا من صالح لأنه دعاهم لعبادة الله، فكذَّبوه وحاولوا أن يضطهدوا الذين آمنوا معه ويعذبوهم، ولم تكن ثمودَ أوَّلَ من يفعل ذلك، فهم يكررون الخطأ الذي وقع فيه كلٌّ من قوم نوح وعاد الذين عاشوا قبلهم، لهذا نجد أن القرآن يقرن بين هؤلاء الأقوام الثلاثة:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرَدُّوآ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِم وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ إبراهيم: 9.

وبالرغم من تحذير صالح لقومه، ظل القوم يشككون برسالته، ولم يؤمن بما جاء به إلا نفر قليل منهم، وهؤلاء هم الذين أنقذهم الله مع صالح من الهلاك الذي حل بالقوم المكذبين، واستمر زعماء القوم على اضطهادهم لهذه الفرقة المؤمنة:

﴿قَالَ المَلأُ الَّذِينَ استَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَن آمن مِنهم أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوآ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ استَكْبَرُوآ إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ الأعراف: 75—76.

وأصرَّ القوم على عنادهم وتشكيكهم بنبوة صالح(ع)، علاوة على ذلك كانت هناك مجموعة منهم أنكرت صالحاً(ع) وكفرت بما جاء به جهاراً وبوقاحة، هؤلاء هم الذين ائتمروا بقتل صالح عليه السلام.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بكَ وَبمنَ معكَ قَالَ طَائِرُكُم عِندَ اللهِ بَلْ أَنْتُم قَومٌ تُفْتَنُونَ * وَكَانَ فِي المَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأَهَله ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُم لا يَشْعُرُون

﴾. النمل: 47—50.

وجاءهم صالح(ع) بآية الناقة ليرى هل يغير ذلك من نظرتهم فيتبعونه أم لا ؟ قال لقومه أن يشاركوا ناقته بمائهم، وأن لا يتعرضوا لها بالأذى، فما كان من قومه إلا أن قتلوا الناقة... تروي سورة الشعراء القصة كالتالي:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُم صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِيْنَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوآ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ * قَالُوآ إِنَّمَآ أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُم شِرْبُ يومٍ مَّعْلُومٍ * ولا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُم عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ الشعراء: 141—157.

أما صراع صالح(ع) مع قومه فتعرضه لنا سورة القمر:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوآ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوا صَاحِبَهُم فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ القمر: 23—29.

هؤلاء القوم لم يواجهوا العقاب مباشرة بعد فعلتهم، مما زاد عنادهم وتكبرهم فقاموا بمهاجمة صالح(ع)، أنكروا عليه دعوته واتهموه بالكذب.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِم وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأعراف: 77.

أحبط الله مخططات القوم الكافرين وخدعتهم، وأنقذ صالحاً من بين يدي من أرادوا به سوءاً ...

بعد أن استنفذ صالح(ع) جميع الوسائل والطرق في تبليغ الرسالة، وبقي قومه على إعراضهم وعدم رغبتهم في الاستجابة له، أخبرهم بما سيصيبهم من هلاك خلال ثلاثة أيام:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُم ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ هود: 65.

تماماً بعد ثلاثة أيام وقع العذاب على القوم وهلكت ثمود.

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِم جاثِمِينَ * كَأَنْ لَّمْ يَغْنَوا فِيهَآ أَلاَ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُم أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ﴾ هود: 67–68.

الاكتشافات الأثرية لقوم ثمود

من بين الأقوام التي ذكرها القرآن هؤلاء القوم الذين يتوفر لدينا اليوم الكثير من المعلومات عنهم، إذ تثبت السجلات الأثرية أن قوم ثمود كانوا موجودين فعلاً في أحد الأزمان.

يعتقد أن أصحاب الحجر المذكورين في القرآن الكريم قوم ثمود، وقد ذكرهم القرآن الكريم باسمهم الآخر "أصحاب الحِجْر". لأن هذه المدينة هي إحدى المدن التي أوجدها هؤلاء القوم، ويتوافق وصف الجغرافي الإغريقي بليني مع هذا. كتب بليني أن "دوماثا" و"هجرا" كانتا منطقتي إقامة ثمود، وهذه الأخيرة هي التي بنت مدينة الحِجْر المعروفة اليوم.[29]

إن أقدم المصادر القديمة التي تشير إلى ثمود هي سجلات النصر التاريخية للملك البابلي، سيرجيون الثاني (القرن الثامن قبل الميلاد) الذي هزم هؤلاء القوم في إحدى حملاته على شمالي الجزيرة العربية، كما يشير الإغريق إليهم على أنهم "تامودي" أي ثمود في كتابات أرسطو و بتولمي وبليني.[30] لقد اختفى هؤلاء القوم قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بشكل كامل، حوالي 400–600 ميلادي.

يَذْكُر القرآن عاداً وثَمُوداً مقترنتين، بل إنه يُذَكِّر ثَمُودا بعادٍ ويأمرهم أن يتعظوا منهم، هذا يعني أن ثَمُوداً كان لديها الكثير من المعلومات عن عاد.

﴿وَإِلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللهَ مَا لكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُم هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. الأعراف: 73.

﴿واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِها قُصُوراً وتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ الأعراف: 74.

كما يفهم من الآية أن ثموداً كانت على علاقة بعاد، وقد تكون عادٌ جزءاً من تاريخ ثمود



الحفريات التي أجريت في أوبار، حيث اكتشفت بقايا المدينة وظهرت تحت طبقة رملية بعمق عدة أمتار. من المعروف أن كارثة رملية يمكن أن تتسبب في تراكم كمية كبيرة من الرمال بوقت قصير جداً، وهذا يمكن أن يحدث فجأة وبطريقة غير متوقعة.

وحضارتها، لقد نصح صالح قومه بأن يتعظوا من عاد ويأخذوا منهم العبرة.

أخبر رسول عاد قومه عن قوم نوح الذين عاشوا قبلهم، وكما أن هناك رابطة تاريخية هامة بين عاد وثمود، كذلك هناك رابطة تاريخية هامة بين قوم نوح وعاد، هؤلاء الأقوام يعرفون بعضهم حتى إنه من الممكن أن يكونوا من نفس السلالة.

إلا أَنَّ عاداً وثَمُودا متباعدتان جغرافياً، ولذلك قد يبدو لأول وهلة أنه لا يوجد صلة مباشرة بينهما، إذن فلماذا اقترن ذكر ثمود بعاد في الآيات القرآنية؟

بقليل من التأمل يظهر الجواب جلياً: إن المسافة الجغرافية بين القومين هي مسافة وهمية،

تاريخياً تكشف المصادر التاريخية عن اتصال وثيق جداً بين ثمود وعاد. تعرف ثمود عاداً لأن هذين القومين، أغلب الظن جاؤوا من نفس المنشأ، تحت عنوان "ثمود" كتبت الموسوعة البريطانية المصغرة:

" قبيلة أو قبائل في الجزيرة العربية القديمة يبدو أنها كانت من القبائل المشهورة، وبالرغم من أن منشأ ثمود هو جنوب الجزيرة العربية، إلا أن مجموعة كبيرة منها انتقلت إلى الشمال في تاريخ مبكر واستقرت على منحدرات جبل أثلب أن قوم ثمود الذين عاشوا بين الشام والحجاز يعرفون تحت اسم "أصحاب الحجر"، لقد كشفت الحفريات الأثرية عن كتابات حجرية وصور ثمودية ضخمة ليس عند جبل أثلب فحسب، بل عبر وسط الجزيرة العربية أيضاً.[31]

وجد مخطوط شبيه بالأبجدية الثمودية في جنوب الجزيرة العربية، وإلى الشمال عبر الحجاز،[32] وجد المخطوط في بادئ الأمر في شمال اليمن الوسطى، والتي تعرف بثمود وترتبط من جهة الشمال بالربع الخالي، ومن الجنوب بِحَضْرَمَوت ومن الغرب بِشَبْوة.

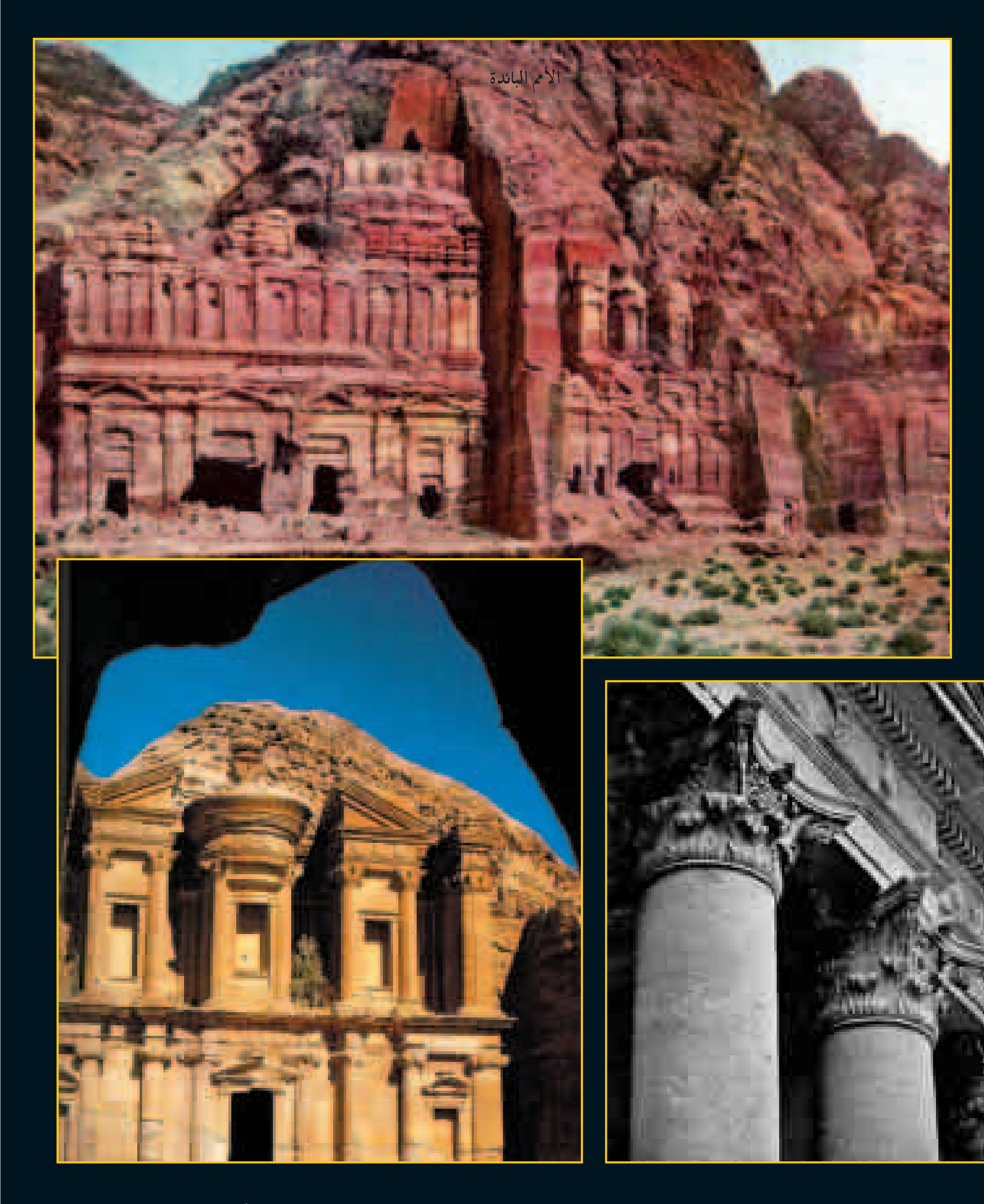
وقبل مشاهدتنا لموقع عاد في جنوب الجزيرة، كان واضحاً جداً أن ثمود كانوا يقطنون منطقة عاد، وخاصة منطقة الحضارمة، أحفاد عاد وعاصمتهم، هذه العلاقة بين عاد وثمود يوضحها القرآن من خلال خطاب صالح لقومه بقوله لهم أنهم أخذوا مكانهم:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُم هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُم آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْض اللهِ ولا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. الأعراف: 73.

﴿وَاذْكُرُوآ إِذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُم فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلاتَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ الأعراف: 74.

لقد دفعت ثمود ثمن عصيانها فلاقت مصير الهلاك، ودُمِّرت مصانُعها ومبانيها فلم تمنع عنها حضارتها التي شيدتها عقاب الله والمصير الأسود الذي كان لها بالمرصاد، هلكت ثمود ونالها العقاب الإلهي الذي نال من كان قبلها ومن جاء بعدها من الأمم العاصية المتمردة على الله وشرعه.


﴿وَاذْكُرُوآ إِذْ جَعَلَكُم خُلَفَآءَ
مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي
الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا
قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً
فَاذْكُرُوآ آلآءَ اللهِ وَلا تَعْثَوْا
فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾
الأعراف: 74.



لقد أسس الأنباط وهم قبيلة عربية قديمة، مملكة في وادي الرم في الأردن، في هذا المكان والذي يدعى أيضاً وادي بترا، يمكن أن تجد أفضل نماذج النحت الحجري الذي قام به هؤلاء القوم، وكذلك الذي ذكر ثمودا بتطاولهم وتفوقهم في فن البناء.

واليوم وبالرغم من كل ما كانوا عليه، لم يبق منهم اليوم سوى هذه البقايا التي تخبرنا عن الفن الذي كان يطبع عصرهم. تبدو في الصور أمثلة عديدة عن النحت الحجري في وادي بترا.

الفصل السادس

فرعون الغريق

﴿ *كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ* ﴾ **الأنفال:** 54.

اشتهرت الحضارة المصرية القديمة مثل حضارة وادي ما بين النهرين، بأنها أقدم الحضارات التي عرفها التاريخ، فقد كانت تقوم نظم اجتماعية متطورة جعلتها أكثر بلاد ذلك الزمن تقدماً، لقد ساهمت عدة عوامل في تقدم وتطور هذه الحضارة، مثل اكتشاف الكتابة واستخدامها في الألف الثالث قبل الميلاد واستثمارهم لمياه النيل، والمنعة الجغرافية التي ضمنتها لهم حدودهم الطبيعية من مخاطر الغزو الخارجي.

إلا أن هذا المجتمع المتحضر كانت تحكمه سلالة الفراعنة، وكانت تحكم بنظام الكفر البواح الذي عرف بأنه نظام الحكم الفرعوني، كما يقص علينا القرآن الكريم، لقد انتفخ الفراعنة غروراً، وأنكروا الله وأداروا ظهورهم له ، ولكن في النهاية لم تنفعهم قوتهم ومنعتهم وحضارتهم العظيمة وتفوقهم العسكري في مواجهة الهلاك.

حكم الفراعنة

قامت حضارة الفراعنة على خصوبة نهر النيل لقد استقر المصريون في وادي النيل بسبب وفرة مياه هذا النهر، وتمكنوا من زراعة الأرض بفضل المياه التي يوفرها لهم دون الاهتمام

لموسم الأمطار السنوية يقول المؤرخ إيرنست ه. كومبرج Ernest Gombrich هذا الموضوع ما يأتي:

أن مناخ إفريقيا مناخ حار وجاف، حتى إن الأمطار قد تنحبس لعدة شهور متواصلة، ولهذا فإن عدة مناطق من هذه القارة الكبيرة تكون قاحلة، وهذه المناطق التي تغطيها الصحراء الواسعة، كذلك فإن ضفتي النيل يغلب عليهما الجو الصحراوي وأمطارهما قليلة، إلا أن الأمطار في هذه المنطقة ليست ذات أهمية، فالنيل يمر من منتصفها تماماً من بدايتها حتى نهايتها.[33]

وهكذا فإن من يتمكن من السيطرة على النيل يمكنه التحكم بالموارد الرئيسية التي تحكم مصر وأهمها التجارة والزراعة، بهذه الطريقة بسط الفراعنة سيطرتهم على مصر.

لم تكن بنية وادي النيل الضيقة والعمودية لتسمح بإقامة مجمعات سكنية كبيرة، لذلك فقد كان المجتمع المصري يعيش ضمن قرى ومدن صغيرة بدلاً من المدن الكبيرة، وهذا في الواقع زاد قدرة الفراعنة على التحكم بمصر وأهلها.

يعرف الملك "منسا" على أنه الفرعون المصري الأول الذي وحد مصر القديمة لأول مرة في التاريخ، فجعلها بلداً واحداً في الألف الثالث قبل الميلاد، تدل كلمة "فرعون" في واقع الأمر على المكان الذي كان يعيش فيه ملك مصر، إلا أنه مع مرور الزمن أصبحت الكلمة لقباً لملك مصر، وتوارثته أجيال الملوك فعرفوا بالفراعنة.

وبوصفهم مالكي البلاد والمتحكمين بالعباد، فقد قبلوا أن يكونوا انعكاساً للإله العظيم الذي كانت تمثله العقيدة المصرية الشركية المنحرفة، كانت تدار كل البلاد لصالح فرعون، الأراضي الزراعية والموارد التجارية والإنتاج الداخلي، باختصار كل ما يخص البلاد.

لقد مهد نظام الحكم الاستبدادي الطريق أمام فرعون لحكم البلاد بالقوة، حيث يمكنه أن ينفذ أي شيء يريده.

بدأ توزيع مياه النهر إلى العامة عند بداية تأسيس السلالة الفرعونية الأولى، عندما قام الملك منسا بتوحيد مصر الشمالية والجنوبية، إلى جانب ذلك كانت الغلال تجمع لصالح فرعون، كل

الموارد كانت تنتهي لديه، ويقوم فرعون بدوره بتوزيع هذه الغلال على قومه حسب احتياجاتهم، لم يكن ليصعب على هؤلاء الملوك الذين بنوا كل هذه القوة في البلاد استعباد العباد، كان ينظر إلى ملك مصر أو الفرعون كما أصبح اسمه فيما بعد، على أنه وجود مقدس يمتلك قوة عظمى ويلبي كل حاجات قومه، لقد تحول إلى إله... ومع الزمن أصبح الفراعنة آلهة حقيقيين في نظر قومهم، بعض الكلمات التي استخدمها فرعون في حواره مع موسى تثبت وجود هذا الاعتقاد: ﴿ **قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** ﴾ الشعراء: 29. وقال لقومه يخاطبهم:

﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ...** ﴾ القصص: 38.

المعتقدات الدينية

يقول المؤرخ الإغريقي هيرودوتس: إن المصريين القدامى كانوا أكثر الناس تقى في عالم ذلك الزمان، إلا أن دينهم لم يكن دين الحق، بل كانوا مشركين، وظلوا متمسكين بدينهم المنحرف بسبب تشددهم.

كان المصريون القدامى متأثرين جداً بالبيئة الطبيعية التي كانوا يعيشون فيها، لقد منعت طبيعة بلادهم الجغرافية عنهم أي هجوم خارجي، فقد كانت مصر محاطةً بالصحارى والجبال والبحر من كل الجهات، لم تكن الهجمات ممكنة إلا من طريقين فقط، وكان من الممكن السيطرة عليهما بسهولة، وبفضل هذه الطبيعة الجغرافية بقيت مصر منعزلة عن العالم الخارجي، إلا أن هذه العزلة مع الزمن تحولت إلى تعصب أعمى ، وهكذا أصبح لدى المصريين نظرة خاصة منيعة على أي تغيير، مغلقة عن أي تنوير، فهم قوم لا يرون إلا دينهم قانوناً ومعيشةً، وأصبح دين آبائهم الذي يذكره القرآن أثمن مالديهم.

لهذا أدار فرعون وحاشيته ظهورهم لموسى وهارون عندما دعوهم لدين الحق:

﴿**قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِيْنَ** ﴾ يونس: 78.



قامت المعتقدات الدينية للمصرين بشكل رئيسي على خدمة آلهتهم، كان »الوسطاء« بين الناس وتلك الآلهة هم الكهنة الذين كانوا من بين وجهاء وقواد المجتمع، كان الكهنة يشكلون طبقة اجتماعية هامة باعتبارهم ممارسون السحر والشعوذة، وكان الفراعنة يستخدمونهم لاستبقاء الناس تحت رحمتهم.

كان دين المصريين القدامى ينقسم إلى قسمين: قسم رسمي يختص بالدولة، وقسم آخر يبحث في معتقدات الناس حول الحياة بعد الموت، ينص المعتقد الديني الذي يخص الدولة على أن فرعون كينونة مقدسة، وهو انعكاس للآلهة على الأرض ليقيم العدالة فيها ويحمي الناس.

كانت المعتقدات التي انتشرت بين الناس في غاية التعقيد، وكانت البنود الدينية التي تتعارض مع دين الدولة الرسمي تلغى بأحكام فرعونية، تقوم ديانتهم بشكل أساسي على الاعتقاد بتعدد الآلهة، وغالباً ما تصور هذه الآلهة على شكل جسم بشري يحمل رأس حيوان، إلا أنه من الممكن أيضاً أن نلتقي بتقاليد محلية تختلف من منطقة إلى أخرى.

تشكل الحياة بعد الموت القسم الأكبر من المعتقدات المصرية، هم يؤمنون بأن الروح يستأنف الحياة بعد أن يموت الجسد، وحسب هذا المعتقد: تحمل الملائكة أرواح الموتى إلى الإله القاضي، وإلى جانبه اثنان وأربعون قاضياً، يوضع الميزان في المنتصف ويوزن قلب الروح في هذا الميزان، يُنقل أولئك الذين يحملون حسنات أكثر إلى مكان جميل ويعيشون في سعادة، أما

أولئك الذين تطغى سيئاتهم فيرسَلون إلى مكان يذوقون فيه ألوان العذاب، هناك يُعَذَّبون إلى الأبد من قبل وحش اسمه "آكل الموتى".

يلتقي معتقد المصريين القدامى في اليوم الآخر مع دين التوحيد، إن هذا الاعتقاد وحده يكفي للبرهنة على أن دين التوحيد قد وصل إلى الحضارة المصرية القديمة، إلا أن هذا الدين قد فسد في النهاية وتحولت الوحدانية إلى التعددية، لقد اكتشف حديثاً أنه قد تتابع على مصر رسل دعوا المصريين إلى توحيد الله وعبادته، كما كانوا يتتابعون على كل أهل الأرض من وقت إلى آخر، أمثال هؤلاء سيدنا يوسف عليه السلام الذي يروي القرآن قصته بالتفصيل، وقصة يوسف مهمة من حيث إنها تتضمن وصول بني إسرائيل إلى مصر واستقرارهم فيها.

من جهة أخرى: تفيد بعض المصادر التاريخية أن بعض المصريين قاموا بالدعوة إلى دين التوحيد حتى قبل موسى (ع)، أحد هؤلاء هو أكثر الفراعنة أهمية في تاريخ مصر... إنه أمنحوتب الرابع.

الفرعون الموحد أمنحوتب الرابع

كان الفراعنة المصريون بشكل عام أشداء قساة ظالمين محاربين ومتوحشين، والخاصية المشتركة للفراعنة أنهم قبلوا دين مصر المتسم بالشرك وألهوا أنفسهم.

ولكن هناك فرعون واحد في التاريخ المصري كان مختلفاً عن الآخرين، دافع هذا الفرعون عن المعتقد الذي يقول بعبادة خالق واحد، وبهذا أصبح موضع هجوم عنيف شَنَّه عليه كهنة الإله آمون الذين كانوا يستفيدون من عقيدة الشرك، وبعض الجند الذين ساعدوهم، وفي النهاية قتل الفرعون... كان هذا الفرعون هو أمنحوتب الرابع الذي اعتلى السلطة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

توج أمنحوتب ملكاً عام 1375 قبل الميلاد رواجه عادات وتقاليد محافظة موروثة منذ مئات الأعوام ، حتى ذلك الوقت كانت بنية المجتمع وعلاقاته العامة مع القصر تسير دون أي تغيير، بقي المجتمع مغلقاً أبوابه في وجه كل الأحداث الخارجية وأي تجديدات دينية، لاحظ


أمنحوتب الرابع

المسافرون الإغريق هذا التطرف في المحافظة على التقاليد الدينية التي ذكرناها سابقاً، كان فرعون يفرض على الناس من خلال الدين الرسمي أن يقبلوا كل ماهو قديم وتقليدي دون قيد أو شرط. إلا أن أمنحوتب لم يقبل هذا الدين الرسمي. كتب المؤرخ إيرنست غومبريتش Ernst H. Gombrich:

لقد حطم (أمنحوتب) العديد من العادات التي كانت تقدسها التقاليد القديمة، لم يرغب في تقديم الولاء إلى العديد من الآلهة الغريبة الشكل التي كان يعبدها قومه، كان الإله العظيم الوحيد بالنسبة له هو آتون الذي كان يصور على شكل الشمس ، أطلق على نفسه اسم أخناتون، و أخرج قصره بعيداً عن كهنة الآلهة الأخرى، إلى منطقة تدعى الآن بالعمارنة.[34]

أصبح أمنحوتب الرابع بعد وفاة والده تحت ضغط كبير، وكان سبب هذا الضغط أنه تحول إلى دين جديد يعتمد على التوحيد بتغييره لدين الشرك التقليدي المصري، وحاول القيام بتغيير جذري في كل المجالات، لم يسمح له زعماء طيبة بنقل رسالة الدين الذي اعتنقه، انتقل أمنحوتب الرابع وأتباعه من مدينة طيبة إلى تل العمارنة، وهنا أقاموا مدينة جديدة وعصرية، أطلقوا عليها اسم "أ خ–ان–اتون"، غير أن أمنحوتب الرابع غيّر اسمه الذي يعني (طمأنينة آمون) إلى أخناتون التي تعني "الخضوع لآتون". كان اسم آمون يمنح لأعظم وثن في العقيدة الشركية المصرية، أما بالنسبة لأمنحوتب فقد كان آتون هو "خالق السماوات والأرض" إنه يماثل اسم الله.

أربك هذا الوضع كهنة آمون وأرادوا انتزاع الحكم من أخناتون مستغلين الأزمة الاقتصادية في المنطقة، وكانت النهاية أن قُتل أخناتون مسموماً على يد المتآمرين، وهكذا بقي الفراعنة الذين تلوه حريصين على البقاء تحت تأثير الكهنة.

تتالى على عرش مصر بعد أخناتون فراعنة بخلفية عسكرية، ومرة أخرى عادت العقيدة التعددية القديمة لتسود بعد جهود كبيرة بذلت في سبيل العودة إلى الماضي، بعد ذلك بقرن تقريباً وصل رمسيس الثاني إلى الحكم واعتلى عرش مصر في أطول فترة حكم شهدها تاريخها، حسب أقوال العديد من المؤرخين: فإن رمسيس هذا هو الذي استعبد بني إسرائيل وقاتل موسى.[35]

مجيء النبي موسى(ع)

بسبب تعصبهم الأعمى لم يكن المصريون على استعداد للتخلي عن معتقداتهم الوثنية، جاء إليهم من يبلغهم رسالة التوحيد، ولكنهم كانوا دائماً يتمسكون بدينهم المنحرف، وفي النهاية أرسل الله لهم موسى نبياً ورسولاً لسببين؛ الأول: أنهم انحرفوا عن دين الحق وكانوا مشركين، والثاني: لأنهم استعبدوا بني إسرائيل، وهكذا أرسل موسى(ع) ومعه هذان الأمران دعوة مصر إلى دين التوحيد وإنقاذ بني إسرائيل:

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى وفِرْعَونَ بِالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَونَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُم يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُم وَيَسْتَحْيِي نِسآءَهم إِنَّه كانَ مِنَ المُفْسِدِينَ * ونُرِيدُ أَن نَّمُنَّ على الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ * ونُمَكِّنَ لَهُم فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وجُنُودَهُما مِنهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾

القصص: 3—6.

أراد فرعون منع ازدياد أعداد بني إسرائيل، فأخذ يقتل مواليدهم الذكور، لهذا ألقت أم موسى موسى في البحر بعد أن وضعته في سلة بوحي من الله، وكان هذا الطريق الذي أوصله إلى قصر فرعون:

﴿وأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلا تَخَافِي ولا تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوه مِنَ المُرْسَلِينَ * فَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ لِيَكُونَ لَهُم عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وجُنُودَهُمَا كانُوا خَاطِئِين * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى

أَن يَنفَعَنَآ أَو نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُم لاَ يَشعُرُونَ ﴾ القصص: 7—9.

أنقذت امرأة فرعون موسى(ع) من القتل وتبنته، وهكذا أمضى موسى طفولته في قصر فرعون وبمعونة الله دخلت أمه إلى القصر كمرضعة له.

وعندما أصبح موسى(ع) شاباً، رأى أحد أبناء مصر يعذب واحداً من بني إسرائيل، فغضب موسى ووكز المصريَّ فمات المصريُّ، وبالرغم من أنه تربى في قصر فرعون، وأن ملكة مصر هي التي تبنته، إلا أن زعماء القوم أجمعوا على أن عقابه الوحيد هو الموت، عندما سمع موسى(ع) بذلك هرب من مصر واتجه إلى مَدْيَن، وفي نهاية المدة التي أمضاها هناك كلمه الله وأعطاه الرسالة، وأمره أن يعود إلى فرعون ويبلغه إياها .

قصر فرعون

امتثل موسى وهارون (عليهما السلام) لأوامر الله ونقلا رسالة الحق إلى فرعون، طلباً منه أن يتوقف عن تعذيب بني إسرائيل وأن يدعهم يخرجون معهما، لم يكن الأمر مقبولاً لدى فرعون أن يقف موسى(ع) الذي تربى في قصره، والذي يفترض أن يكون وريث عرشه، في وجهه ويتكلم إليه بهذه الطريقة، لذلك اتهمه بالتنكر للمعروف:

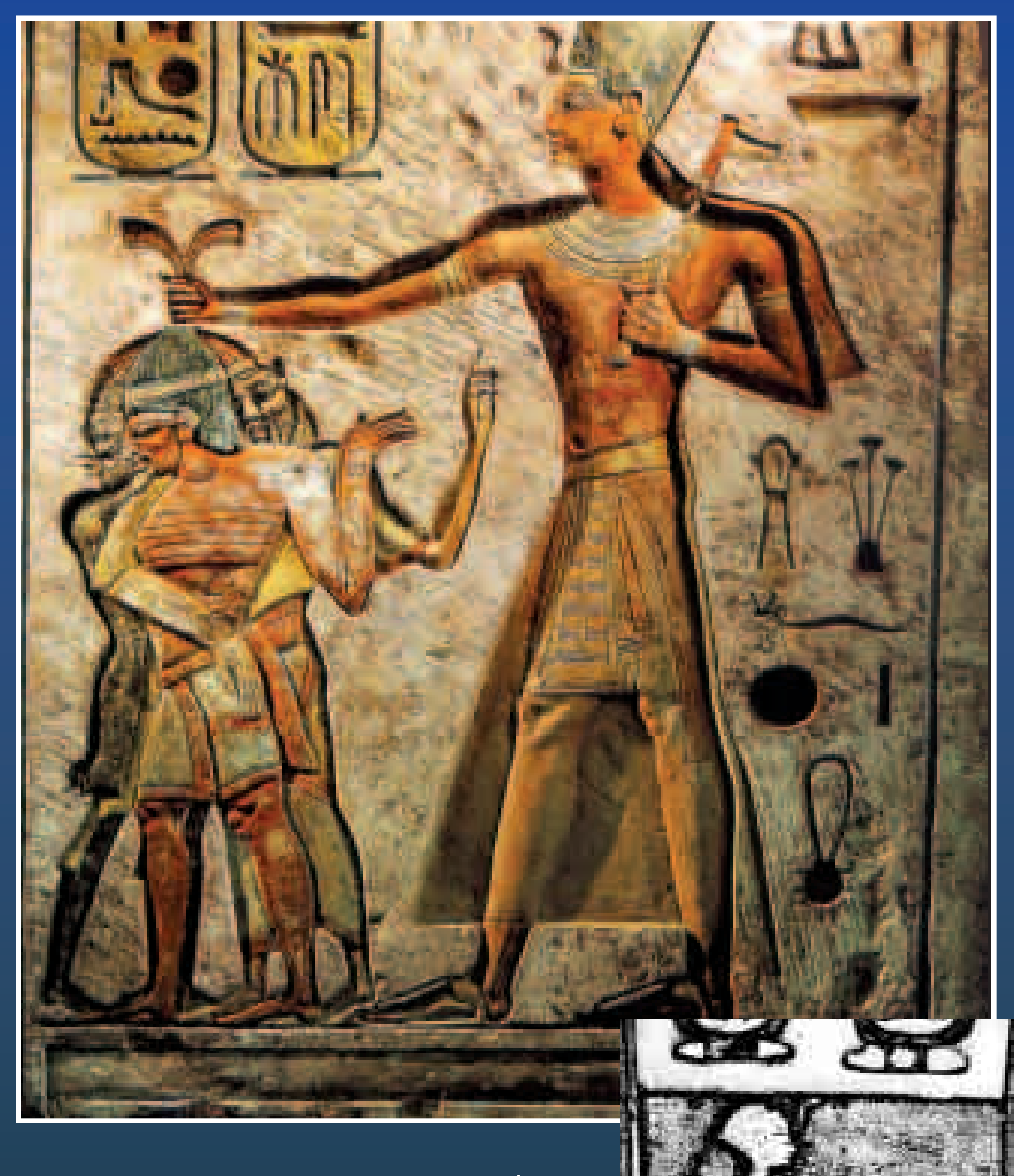
﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِيْنَا من عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ الشعراء: 18—19.

كان فرعون يحاول أن يستثير مشاعر موسى وعواطفه، فهو الذي رباه في كنفه فشب وترعرع في قصره، فكان لزاماً على موسى أن يطيعه، هذا الجو العاطفي الذي حاول فرعون أن يؤثر فيه على موسى(ع)، فرضه أيضاً على القادة من حاشيته ليقفوا في صفه.

من جهة أخرى: وجد فرعون في الدين الحق الذي جاء به موسى وهارون إلغاء لمقومات ملكه، وأنه يحط من منـزلته ليجعله في مصف الإنسان العادي، فمنذ تلك اللحظة لن يكون إلهاً، لا بل عليه طاعة موسى(ع)؛ هذا إلى جانب الخسارة الكبيرة التي سيُمْنى بها لو أنه أرسل بني إسرائيل فعلاً مع موسى، لأنهم كانوا يشكلون قوة عمل بشرية كبيرة بالنسبة له.



القوم المستعبَدون الذين ظلمهم فرعون في عصر المملكة الجديدة بشكل خاص، فكانت الأقلية التي عاشت في تلك البلاد تقوم بالأعمال الشاقة وتشيد الأبنية الضخمة، كان بنو إسرائيل من بين هذه الأقلية، يبدو أن العبيد الذين تصورهم الصورة أعلاه والذين يقومون ببناء أحد المعابد، هم بنو إسرائيل على الأرجح. في الصورة إلى الأسفل يظهر العبيد والذين هم أيضاً من بني إسرائيل، وهم ينفذون بعض الأعمال الفنية قبل البَدء بالعمل، يقوم العبيد بصناعة الآجر/ الأحجار المطبوخة/ بغلي الطين على النار وتحضير المِلاط.



المفترض أن هذه الصورة لرمسيس الثاني الذي ذكر في القرآن حسب روايات العديد من المؤرخين، يبدو رمسيس الثاني وهو يقتل بعضاً من العبيد الذين أمسك بهم، تكشف هذه الصورة الحائطية أيضاً أن الفراعنة كانوا مقاتلين أشداء؛ فكانوا يُصَوَّرون كأبطال طوال القامة بأكتاف عريضة، يمكنهم هزيمة عدد من الأشخاص في وقت واحد.

بوصفهم من أصل إلهي كما
يعتقدون، يحاول الفراعنة أن
يظهروا بمظهر عظيم ومتفوق على
غيرهم من بني البشر.



وبسبب شهوة الحكم والغرور لم يستمع فرعون لموسى(ع)، بل حاول أن يهزأ منه ويبرهن له على جبروته،لذا لم يؤمن بموسى ولا برسالته؛ بل وحاول أن يتهم موسى وهارون بالاستعلاء ومحاولة الإفساد في الأرض، وفي نهاية المطاف لم يؤمن لا فرعون ولا حاشيته ـ عدا السحرة طبعاً ـ برسالة موسى وهارون(عليهما السلام). رفضوا اتباع دين الحق، فأرسل عليهم الله بادئ الأمر عدداً من الكوارث.

المصائب التي وقعت على فرعون وحاشيته

كان فرعون وحاشيته متمسكين بمعتقدهم التعددي والوثني " دين آبائهم" ولم يكونوا ليتركوه، حتى المعجزتان اللتان جاء موسى بهما : يده البيضاء والعصا التي انقلبت ثعباناً، لم تكونا كافيتين لجعلهم يتخلون عن دينهم المنحرف، لقد أعلنوا ذلك جهاراً، قالوا: ﴿**وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ من آيةٍ لِتَسْحَرَنَا بها فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ الأعراف: 132.

وبسبب تصرفهم هذا أرسل الله عليهم مجموعة من الكوارث "كمعجزات منفصلة" ليذوقوا العذاب في هذه الحياة قبل العذاب الخالد في الحياة الآخرة، الكارثة الأولى كانت القحط ونقص الثمرات، تقول الآيات القرآنية:

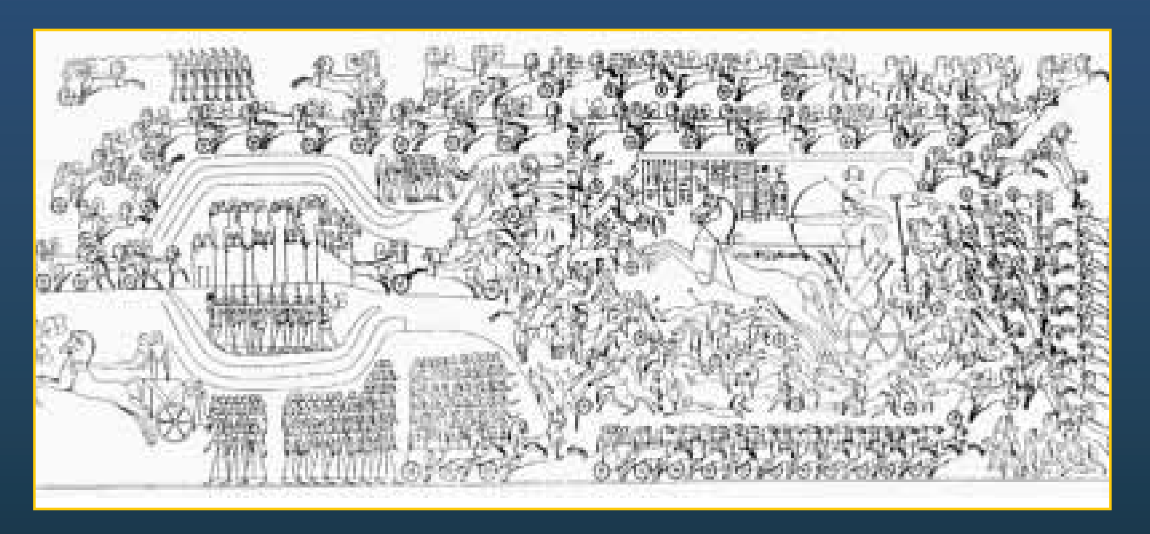
﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ونَقْص مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُم يَذَّكَّرونَ**﴾ الأعراف: 130.

كانت زراعة المصريين تقوم على نهر النيل، ولهذا لم يكونوا ليتأثروا بتغيرات المناخ الطبيعية، إلا أن كارثة غير متوقعة حلت بهم بسبب غرور فرعون وحاشيته واستكبارهم على الله ورسوله، ولأسباب مختلفة تدنى مستوى نهر النيل ولم يعد يحمل ما يكفي من الماء إلى الأراضي الزراعية، وجفت المحاصيل بسبب الحرارة الشديدة، وهكذا جاءتهم الكارثة من حيث لم يحتسبوا، من النيل الذي كانوا يعتمدون عليه، أرعبت هذه الكارثة فرعون الذي اعتاد أن يخاطب قومه قائلاً:

﴿**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَومِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾ الزخرف: 51.



يظهر رمسيس الثاني في عربة الحرب وهو يهزم مجموعة كبيرة من الأعداء، وكغيرها من الصور فهذه الصور خيالية رسمها الرسامون بناء على أمر من فرعون.



معركة قاديش، هذه المعركة التي جرت بين رمسيس والحثيين، نقلها المؤرخون المصريون بشيء من التزييف على أنها كانت نصراً عظيماً لفرعون، في واقع الأمر: تم إنقاذ فرعون من الموت في آخر لحظة في هذه المعركة، واضطر لعقد صلح.

كانت هذه الكارثة تكذب فرعون بأبلغ لسان

وبدلاً من أن يتعظ القوم – كما تذكر الآيات القرآنية، قالوا: إن ذلك لم يكن إلا بسبب سوء الطالع الذي جاء به موسى وبنو إسرائيل، لقد قالوا بهذه الذريعة، بسبب عقائدهم الباطلة وطبيعة العصيان عندهم. وقد ذاقوا وبال أمرهم هذا عدة سنين فعاشوا في ضيق وضنك وتمسكهم بدين آبائهم، إلا أن الأمر لم يكن محدوداً بهذه الكارثة، بل كانت هذه البداية فحسب، إذ تتالت الكوارث بعد ذلك تباعاً إنذارا لشعب مصر وتنبيهاً لهم. وقد ذكر القرآن الكريم هذه الكوارث:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ والجَرَادَ والقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ آياتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فاستَكْبَرُوا وَكَانوا قَوماً مُّجرِمِينَ﴾ الأعراف: 133.

يتوافق وصف هذه الكوارث في القرآن الكريم مع العهد القديم:

"21 ومات السمك الذي في النهر، وأنتن النهر فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر، وكان الدم في كل أرض مصر." (الخروج 7:21).

"2 وإن كنت تأبى أن تطلقهم فها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع، 3 فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك وإلى معاجنك." (الخروج 8: 2–3)

"16 ثم قال الرب لموسى: قل لهارون: مد عصاك واضرب تراب الأرض ليصير بعوضاً في جميع أرض مصر." (الخروج 8: 16).

"19 فقال العرافون لفرعون: هذا أصبع الله، ولكن اشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب". (الخروج 8: 19).

واستمرت الكوارث المرعبة على فرعون وحاشيته، كان من أهم خصائص هذه الكوارث أنها كانت نابعة مما كان القوم الوثنيون يعبدونه كآلهة ، فهم على سبيل المثال: كانوا يقدسون النيل والضفادع، فبينما كان القوم يتوقعون المساعدة والعون من آلهتهم هذه، عاقبهم الله من خلال هذه الآلهة، عسى أن يدركوا أخطاءهم ويدفعوا ثمن آثامهم. ويدركون أن هذه الآلهة لا تملك أي حول ولا قوة ولا تستطيع نفعهم.

حسب أقوال مفسري العهد القديم: فإن مصيبة الدم التي كانت تحول ماء نهر النيل إلى دم، وهذه كناية عن تحول لون ماء النيل إلى اللون الأحمر، وحسب بعض التفاسير: فقد حصل هذا بسبب نوع من البكتريا، كان النيلُ مصدرَ الحياة الأساسي للمصريين، وأي نوع من الأذى يلحق بهذا المصدر يعني الموت لكل مصر، وإذا ما اجتاحت هذه البكتريا مياه النيل بهذه النسبة التي حولت ماء النيل إلى اللون الأحمر، فهذا يعني أن كل من يشرب من النيل من الأحياء سيصاب بهذه البكتريا.

دلت الاكتشافات الحديثة أن سبب اللون الأحمر في المياه المالحة والعذبة هي أنواع من البروزيات أو العوالق اللاحمة أو الإشنيات أو الطحالب أو الفطور، كل هذه الفطور أو البروزيات تسحب الأكسجين من الماء وتفرز سموماً ضارة تضر بجميع الأحياء، لاحظت [36] باتريشا أتستر Patricia A.Tester الخبيرة في وحدة الأسماك الوطنية للولايات المتحدة الأميركية تكتب في حوليات أكاديمية نيويورك للعلوم، أنه بالرغم من أن أقل من 50 نوعاً من أصل 500 من المعلقات البحرية يعتبر ساماً، إلا أن هذه الأنواع التي تحمل الخاصية السمية تشكل خطراً كبيراً على الحياة المائية، كما يشير أيوين تود Ewen C.D Todd وهو من وزارة الصحة الكندية في نفس الحولية إلى تفشي عدد من أنواع المعلقات المائية هذه، حوالي أربعة وعشرين نوعاً في مختلف أصقاع العالم. أما كارميشيل وفالكونر فقد وضعا قائمة بالأمراض التي يسببها الطحلب الأخضر والأزرق في المياه العذبة، كما حدد جوان بوركهولدر Joann M.Burkholder - وهو أخصائي لعلوم البيئة المائية – من جامعة كارولاينا الشمالية بعض الأنواع على أنها قاتلة للأسماك.

وفي زمن فرعون يحتمل حدوث سلسلة من هذه الكوارث، وحسب سياق الأحداث: ماتت الأسماك عندما تلوث النيل، وبذلك فقد المصريون مصدراً هاماً للغذاء، وفي غياب الأسماك التي كانت تأكل القسم الأعظم من بيوض الضفادع، تكاثرت الضفادع وازداد عددها بشدة وهربت من المياه الملوثة لتسكن البر، ولكنها تسممت أيضا وماتت وتعفنت وتحللت مثل الأسماك، وهكذا أصبح النيل وما حوله فاسداً قذراً والماء غير صالح للشرب أو

للاستحمام، وبسَبَّبَ موت وانقراض الضفادع أزداد عدد الحشرات والقمل بشكل واسع.

لاشك أن ما جاء أعلاه يعد مجرد تفسير وتأويل وبغض النظر عن الكيفية التي حلَّت بها الكوارث والآثار التي تركتها، لم يعتبر فرعون ولا حاشيته ولم يتوجهوا إلى الله، بل ظلوا في طغيانهم يعمهون، لقد ظن فرعون وحاشيته أن بإمكانهم أن يخدعوا موسى(ع) والله (حاشا لله)، ولكن عندما وقع عليهم العذاب استنجدوا بموسى ليرفعه عنهم:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيهِمُ الرِّجزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرآئِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنهُمُ الرِّجزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوه إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ الأعراف: 134—135.

الخروج من مصر

أوضح الله لفرعون وحاشيته رسالته من خلال موسى وأنذرهم عقابه، فما كان جوابهم إلا أن عصوه واتهموه بالكذب والجنون، فأعد الله لهم نهاية مخزية وأخبر موسى بما سيقع:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُم لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسرائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فلمَّا تَرَآءَى الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ الشعراء: 52—61.

وفي ظروف كهذه ظن أصحاب موسى أنهم مدركون فعلاً، وبالمقابل ظنَّ فرعون وحاشيته أنهم قد أوقعوا بهم، إلا أن موسى قال لهم أن لا يقنطوا من رحمة الله: ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّيْ سَيَهْدِيْنِ﴾الشعراء: 62 .

في تلك اللحظة أنقذ الله بني إسرائيل، ففرق البحر إلى نصفين، وأغرق فرعون وقومه في البحر الذي أطبق عليهم بعد أن عبر بنو إسرائيل.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنجَيْـنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي

ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الشعراء: 63–68 .

تتميز عصا موسى بخصائص معجزة، عندما أوحى الله إليه رسالته تحولت إلى ثعبان، وعندما حاجج السحرة تحولت أيضاً إلى ثعبان ابتلع ثعابين السحرة وعصيهم، والآن هذه العصا نفسها فرقت البحر ﴿**فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ**﴾ وهذه كانت أكبر معجزات موسى عليه السلام.

هل وقعت هذه الحادثة في البحر المتوسط أم في البحر الأحمر؟

لا يوجد إجماع على المكان الذي قسم فيه موسى(ع) البحر إلى نصفين، وبما أن القرآن لم يرو لنا بالتفصيل عن هذا الموضوع، فلا يمكننا أن نتأكد من صحة أي اقتراح يطرح بهذا الصدد، يقول بعضهم: إن الشاطئ المصري على البحر المتوسط كان هو مسرح الأحداث. جاء في موسوعة جودايكا Judaica:

"تحدد الغالبية العظمى من الآراء على وقوع هذه الحادثة في إحدى أنه أحد البحيرات الضحلة الموجودة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.37 "

إن هذا الحادث يمكن أن يكون قد حصل في فترة حكم رمسيس الثاني، وربما بعد هزيمة معركة قاديش.فقد ورد في كتاب الخروج في العهد القديم: أن الأحداث أخذت مجراها في ميغدول وبعل زيفون اللتين تقعان في شمالي الدلتا.38

هذا الرأي يعتمد على العهد القديم، ورد في تفاسير كتاب الخروج من العهد القديم: أن فرعون ورجاله قد غرقوا في البحر الأحمر(Red Sea)، إلا أن أولئك الذين يتبنون تلك النظرية يقولون: إن الكلمة التي ترجمت على أنها البحر الأحمر (The Red Sea هي في الحقيقة (The Sea of Reeds) وتعني بحر القصب، وقد استخدمت هذه الكلمة في العديد من المصادر كـ (Red Sea) مع الدلالة على الموقع المذكور، على كل حال: تشير (The Sea of Reeds)، إلى

الشواطئ المصرية على البحر الأبيض المتوسط، وقد ذكرت منطقتا ميغدول وبعل زيفون في العهد القديم في الطريق الذي سلكه فرعون ومن معه، وهذان الموقعان موجودان في شمالي الدلتا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، إن دلالة "بحر القصب" تدعم الظن بأن الحادثة قد وقعت على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، لأنه في هذه المنطقة ينمو الكثير من القصب بسبب طمي الدلتا، وهذا يتوافق مع التسمية.

غرق فرعون ورجاله في البحر

يخبرنا القرآن عن أهم النواحي في فرق البحر، حسب الرواية القرآنية: فإن موسى(ع) قد خرج مع بني إسرائيل الذين اتبعوه من مصر، لم يرض فرعون طبعاً أن يقوموا بذلك دون موافقته فتبعهم هو وجنوده ﴿**بَغْياً وَعَدْواً**﴾ يونس: 90. وصل بنو إسرائيل مع موسى إلى الشاطئ وعلى آثارهم فرعون ومن معه، بدأ بعض من بني إسرائيل الذين لاحظوا ذلك يشتكون إلى موسى(ع). حسب العهد القديم: قالوا لموسى: "لماذا أخرجتنا من ديارنا، هناك كنا عبيداً، ولكننا كنا نعيش حياتنا، أما الآن فسوف نموت". هذا الضعف في تلك المجموعة جاء القرآن على وصفه في سورة الشعراء:

﴿**فَلَمَّا تَرَآءَى الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ الشعراء: 61.

في الحقيقة لم تكن هذه هي المرة الأولى ولا الأخيرة التي يبدي فيها بنو إسرائيل عصيانهم لنبيهم، لقد أبدوا تذمرهم قبل هذا عندما قالوا:

﴿**قَالُوا أُوذِينَا من قَبْلِ أن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُم أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُم فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ الأعراف: 129.

وعلى العكس من قومه وعدم توكلهم على الله، كان موسى واثقاً تماماً من نصر الله، لأنه كان على ثقة تامة بالله، فمنذ بداية معركته أخبره الله أنه سيكون معيناً وناصراً له: ﴿ **قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَى** ﴾ طه: 46.



عندما رأى موسى(ع) السحرة أول مرة ﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى**﴾ طه: 67. وهنا أوحى الله إليه أن عليه أن لا يخاف أبداً، وأنه في النهاية هو الغالب بالتأكيد، علَّم الله موسى وأنشأه على طريق الحق، لذلك عندما خاف بعضُ قومه أن يدركهم فرعون قال لهم: ﴿**قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ الشعراء: 62.

أوحى الله إلى موسى(ع) أن يضرب البحر بعصاه:

﴿**أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾ الشعراء: 63.

في اللحظة التي شاهد فيها فرعون هذه المعجزة أدرك أن هناك شيئاً غير عادي يحدث، وأنه يرى تدخلاً إلهياً في الوضع، لقد فتح البحر أمام القوم الذين كان ينوي إهلاكهم، إلا أنه لم يكن هناك مايوحي بأن البحر سيعود وينغلق بعد أن يمروا؛ وبإصرار تبعهم هو وجنودَه إلى البحر، لقد فقد فرعونٌ وجنودَه التفكير السليمَ في تلك اللحظة بسبب عدوانهم وجبروتهم، فلم

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ

يونس: 92.

يكونوا قادرين على مواجهة أو فهم الإعجاز الإلهي في تلك الحادثة، يصف القرآن اللحظات الأخيرة لفرعون في سورة يونس:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّه لآ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسرآئيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يونس: 90 .

ولنرَ معجزةً أخرى من معجزات موسى(ع) من خلال هذه الآيات:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِم فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ولا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ يونس: 88—89.

من الواضح في هذه الآيات أن الله قد أخبر موسى(ع) في استجابته لتضرعه: أن فرعون سيؤمن بالله وهو يلقى العذاب الأليم، وهذا ما حدث فعلاً، آمن فرعون بينما كان الماء يغطيه، إلا أن هذا التصرف كما كان واضحاً كان خالياً من الصدق والإخلاص، لقد قال فرعون هذا فقط لينقذ نفسه من الموت.

بالطبع لم يقبل الله إيمان اللحظة الأخيرة... ولم ينج فرعون وجنوده من الغرق:

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ يونس: 91—92.

كذلك يخبرنا القرآن أن جنود فرعون لقوا نفس مصيره لأنهم كانوا يتصرفون **﴿بَغْياً وَعَدْواً﴾** يونس: 90، **﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾** القصص: 8، **﴿ظَالِمِينَ﴾** القصص: 40 ، **﴿وَظَنُّوآ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ﴾** القصص: 39، وهكذا استحقوا عقاب الله تماماً كسيِّدِهم، فجمعهم الله بقوله: **﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُم فِي الْيَمِّ...﴾** القصص: 40 .

﴿فَانتَقَمْنا مِنهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَكَانُوا عَنهَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف: 136.

ويصف لنا القرآن ماحدث بعد موت فرعون في جملة واحدة:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسرائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ الأعراف: 137.

الفصل السابع

قوم سبأ وسيل العرم

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ سبأ: 15-16 .

يعتبر مجتمع سبأ واحداً من أكبر أربع حضارات عاشت في جنوبي الجزيرة العربية، ويعتقد أن هؤلاء القوم قد أسسوا مجتمعهم ما بين 1000 ـ 750 قبل الميلاد، وانهارت حضارتهم حوالي 550 بعد الميلاد، بسبب الهجمات التي دامت قرنين والتي كانوا يتعرضون لها من جانب الفرس والعرب.

بقي تاريخ نشوء حضارة سبأ موضع خلاف حتى الآن، فالسبئيون لم يشرعوا بكتابة تقاريرهم الحكومية حتى سنة 600 قبل الميلاد، لذلك لا يوجد أي سجلات سابقة لهذا التاريخ.

يعود أقدم المصادر التي تشير إلى قوم سبأ إلى سجلات الملك سيرجون الثاني الآشوري الحربية (722 ـ 705 قبل الميلاد)، في تلك السجلات يشير الملك الآشوري في سجلاته التي دون فيها الأمم التي كانت تدفع له الضرائب إلى ملك سبأ "إيت عمارا". هذا أقدم مصدر يشير إلى الحضارة السَّبئية، إلا أنه ليس من الصواب أن نستنتج أن هذه الحضارة قد تم إنشاؤها حوالي 700 قبل الميلاد فقط اعتماداً على هذا المصدر الوحيد ،لأن احتمال تشكل



نقوش مكتوبة بلغة أهل سبأ

هذه الحضارة قبل ذلك وارد جداً، وهذا يعني أن تاريخ سبأ قد يسبق هذا التاريخ. ورد في نقوش أراد نانار، أحد ملوك مدينة أور المتأخرين، كلمة "سابوم" والتي تعني "مدينة سبأ" 39، وإذا صح تفسير هذه الكلمة على أنها مدينة سبأ، فهذا يعني أن تاريخ سبأ يعود إلى 2500 قبل الميلاد.

تقول المصادر التاريخية التي تتحدث عن هذه الحضارة: إنها كانت أشبه بالحضارة الفينيقية، أغلب نشاطاتها تجارية، لقد سيطر هؤلاء القوم على الطرق التجارية التي تمر عبر شمالي الجزيرة، كان على التجار السبئيين أن يأخذوا إذناً من الملك الآشوري سيرجون الثاني حاكم المنطقة التي تقع شمالي الجزيرة، إذا ما أرادوا أن يصلوا بتجارتهم إلى غزة والبحر المتوسط، أو أن يدفعوا له ضريبة على تجارتهم، وعندما بدأ هؤلاء التجار بدفع الضرائب للملك الآشوري دُوِّنَ اسمُهُم في السجلات السنوية لتلك المنطقة.

يعرف السبئيون من خلال التاريخ كقوم متحضرين، تظهر كلمات مثل "استرجاع"، "تكريس"، "بناء"، بشكل متكرر في نقوش حكامهم، ويعتبر سد مأرب الذي كان أحد أهم معالم هذه الحضارة، دليلاً واضحاً على المستوى الفني المتقدم الذي وصل إليه هؤلاء القوم؛ إلا أن هذا لا يعني أنهم كانوا ضعفاء عسكرياً، فقد كان الجيش السبئي من أهم العوامل التي ضمنت استمرار هذه الحضارة صامدة لفترة طويلة.

كان الجيش السبئي من أقوى جيوش ذلك الزمان، وقد ضمن لحكامه امتداداً توسعياً جيداً، فقد اجتاحت سبأ منطقة القتبيين ، وتمكنت من السيطرة على عدة مناطق في القارة الإفريقية، وفي عام 24 قبل الميلاد وأثناء إحدى الحملات على المغرب، هزم الجيش السبئي جيش ماركوس إيليوس غالوس الروماني الذي كان يحكم مصر كجزء من الإمبراطورية الرومانية التي كانت أعظم قوة في ذلك الزمن دون منازع، يمكن تصوير سبأ على أنها كانت بلاداً معتدلة سياسياً، إلا أنها ما كانت لتتأخر في استخدام القوة عند الضرورة.. لقد كانت سبأ بجيشها وحضارتها المتقدمة من " القوى العظيمة" في ذلك الزمان.

لقد ورد في القرآن ذكر جيش سبأ القوي، وتظهر ثقة هذا الجيش بنفسه من خلال كلام

قواد الجيش السبئي مع ملكتهم كما ورد في سورة النمل:

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ النمل: 33.

كانت مأرب هي عاصمة سبأ، وكانت غنية جداً، والفضل يعود إلى موقعها الجغرافي، كانت العاصمة قريبة جداً من نهر الدهنا الذي كانت نقطة التقائه مع جبل بلق مناسبة جداً لبناء سد، استغل السبئيون هذه الميزة وبنوا سداً في تلك المنطقة حيث نشأت حضارتهم، وبدؤوا يمارسون الري والزراعة، وهكذا وصلوا إلى مستوى عال جداً من الازدهار. لقد كانت مأرب العاصمة من أكثر المناطق ازدهاراً في ذلك الزمن. أشار الكاتب الإغريقي بليني

ـ الذي زار المنطقة وأسهب في مدحها ـ إلى وقال أنها أراضي واسعة وخضراء.40

بلغ ارتفاع سد مأرب 16 متراً وعرضه60 متراً وطوله 620 متراً، وهذا يعني حسابياً أنه يمكن أن يروي 9600 هكتاراً من الأراضي ، منها 5300 في السهل الجنوبي، والباقي للسهل الشمالي، كان يشار إلى هذين السهلين في النقوش السبئية "مأرب والسهلان"41 و يشير التعبير الدقيق في القرآن: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ إلى وجود حدائق وكروم في هذين الواديين أو السهلين، لقد أصبحت المنطقة أكثر مناطق اليمن غنىً وإنتاجاً بفضل السد ومياهه. أثبت الباحثان: الفرنسي ج. هوفلي والنمساوي غلاسر أن سد مأرب قد أوجد منذ زمن بعيد. وتروي الوثائق المكتوبة بلغة "حِمْـيَرَ" أن هذا السد قد جعل المنطقة في غاية الخصوبة والعطاء.

لقد تم إصلاح هذا السد خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد، إلا أن هذه الإصلاحات لم تمنع السد من الانهيار عام 542 للميلاد. انهار السد بسبب سَيل العَرِمِ الذي ذكره القرآن الكريم، والذي سَبَّبَ أضراراً بالغة، لقد هلكت كل البساتين والكروم والحدائق ـ التي بقي السبئيون يرعونها لعدة قرون ـ على بَكْرَةِ أبيها، بعد انهيار السد عانى السبئيون من فترة ركود طويلة لم تقم لهم قائمة بعدها... وهذه كانت نهاية القوم التي بدأت مع انهيار السد.

سيل العَرِم الذي أتى على سبأ

إذا ما تأملنا الآيات القرآنية على ضوء المعلومات التاريخية التي أتينا عليها، لوجدنا توافقاً كبيراً.



أصبح السبئيون أصحاب أعظم حضارة قامت على الري بعد بنائهم سد مأرب بأحدث الوسائل التقنية، لقد سمحت لهم أرضهم الخصبة التي امتلكوها وسيطرتهم على الطرق التجارية، أن ينعموا بالرخاء والازدهار الذي طبع أسلوب حياتهم، ومع ذلك «أعرضوا عن الله» الذي يتوجب عليهم أن يكونوا ممتنين، شاكرين له ولأنعُمِه، لذلك انهار سدهم وأهلك سيل العَرِم كلَّ ما بنوه.

تثبت كل من المكتشفات الجيولوجية والأثرية ما جاء في القرآن، فكما ذكر القرآن لقد استحق هؤلاء القوم ـ الذين لم يستمعوا لنصح رسولهم وكذبوا بالحق لما جاءهم ولم يؤمنوا به ـ العقاب بسيل عَرِمٍ، يصف القرآن الكريم هذا السيل في سورة سبأ:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ سبأ: 15 ـ 17.

لقد كان السبئيون كما تدل الآية الكريمة يعيشون في منطقة مشهورة بجمالها، جنان وكروم، وكانت تقع على طرق التجارة، لقد كانت على مستوى متقدم جداً بالنسبة لغيرها من مدن ذلك الزمان.

كانت ظروف العيش في بلدة كهذه ممتازة، ولم يكن للقوم من جهد يبذلونه سوى ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ كما تقول الآية، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك، بل نسبوا ما يملكونه لأنفسهم، لقد ظنوا أنهم أصحاب هذه البلدة ، وأنهم هم الذين أوجدوا مافيها من الرخاء والازدهار، اختاروا الغرور والتكبر على الشكر والتواضع لله، وكما تقول الآية: ﴿ فَأَعْرَضُوا... ﴾.

لأنهم نسبوا كل ما أنعم الله به عليهم لأنفسهم، وأصرُّوا أنه من صنعهم، خسروا كل شيء... لقد أهلك سيلُ العَرِم كلَّ ما صنعت أيديهم.

يذكر القرآن أن العقاب الإلهي كان بإرسال ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾. وهذا التعبير القرآني يخبرنا كيف وقعت الواقعة، فكلمة "عَرِم" تعني الحاجز أو السد. يصف تعبير ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ السيل الذي جاء ليدمر هذا الحاجز، لقد حل المفسرون المسلمون موضوع الزمان والمكان على ضوء الألفاظ القرآنية التي وردت في وصف سيل العرم، يقول المودودي في تفسيره:

"كما استخدم في التعبير سيل العرم، فإن كلمة "عَرِم" مشتقة من كلمة "عريمن" المستخدمة في لهجة سكان جنوب الجزيرة، والتي تعني "السد، الحاجز"، وقد عثر على هذه

عاد اليوم السد السبئي المشهور مرة أخرى إلى ما كان عليه من إمكانات الري السابقة.





كان سد مأرب الذي تظهر آثاره في الصورة أعلاه، أحد أشهر أعمال السبئيين، انهار هذا السد بسبب سيل العَرِم المذكور في القرآن، وأغرق كلَّ المناطق الزراعية، لقد هلكت المدينة بسبب انهيار السد، وفقدت بلدة سبأ قوتها الاقتصادية بوقت قصير جداً، ما لبثت بعده أن تلاشت كحضارة سادت ثم بادت..

الكلمة في أثناء الحفريات التي نفذت في جنوب اليمن باستعمالات كثيرة تفيد هذا المعنى، على سبيل المثال: استخدمت هذه الكلمة في الكتابات التي كانت تملى من قبل ملك اليمن الحبشي "أبرهة"، بعد تعمير وأصلاح سد مأرب في 542 و543 م لتعني السد "الحاجز" مرة أخرى. أذن فأن ﴿سَيْلَ العَرِمِ﴾ يعني "كارثة السيل التي حدثت بعد تحطم سد".



يخبرنا القرآن الكريم أن ملكة سبأ وقومها كانوا «يعبدون الشمس مع الله» قبل أن تتّبع سليمان، وتوضح المعلومات التي تحملها هذه النقوش هذه الحقيقة، كما تشير إلى أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر في معابدهم والتي يظهر أحدها في الأعلى.

تظهر على الأعمدة نقوش كتبت باللغة السبئية .



﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ سبأ: 16. أي: إن البلدة بكاملها قد غرقت بعد انهيار السد بسبب السيل، لقد تحطمت جميع أقنية الري التي حفرها السبئيون، وكذلك الحائط الذي أنشؤوه ببنائهم حواجز بين الجبال، ولم يعد لنظام الري أي وجود، وهكذا تحولت الجنان إلى أدغال، ولم يبقَ من الثمار شيء، سوى ثمار تشبه الكرز وأشجار قصيرة كثيرة الجذور.[42]

لقد أقر الكاتب وعالم الآثار المسيحي وورنر كيلر Werner Keller صاحب كتاب "الكتاب المقدس كان صحيحاً" أن سيل العرم قد حدث كما ورد وصفه في القرآن الكريم، وأنه وقع في تلك المنطقة، وأن هلاك المنطقة بكاملها بسبب انهياره، إنما يبرهن على أن المثال الذي ورد في القرآن الكريم عن قوم الجنتين قد وقع فعلاً.[43]

بعد وقوع كارثة السد، بدأت أراضي المنطقة بالتصحر، وفقد قوم سبأ أهم مصادر الدخل لديهم مع اختفاء أراضيهم الزراعية، وهكذا كانت عاقبة القوم الذين أعرضوا عن الله وترفعوا

عن شكره، وتفرق القوم بعد هذه الكارثة، وبدأ السبئيون يهجرون أراضيهم مهاجرين إلى شمالي الجزيرة، مكة وسوريا.[44]

يأتي الحيز الزماني الذي شغلته هذه الكارثة بعد زمن العهد القديم والعهد الجديد، لذلك لم يرد ذكره إلا في القرآن الكريم.

تقف آثار مأرب المهجورة والتي كانت في يوم من الأيام موطناً للسبئيين، كآية من آيات العذاب تنذر أولئك الذين يكررون خطيئة القوم، لم يكن السبئيون هم القوم الوحيدين الذين أهلكهم السيل، ففي سورة الكهف يروي لنا القرآن الكريم قصة صاحب الجنتين، امتلك هذا الرجل جنتين خصبتين جميلتين تشبهان جنان قوم سبأ، إلا أنه ارتكب نفس خطيئتهم: أعرض عن الله، لقد ظن أن هذه النعمة من صنعه هو وهي له دون عن غيره:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً * فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً * هُنَالِكَ الْوَلايَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ الكهف: 32 ــ 44 .

كما نفهم من الآيات لم يكن صاحب الجنة ناكراً لوجود الله، بل على العكس فهو يتصور أنه حتى لو عاد إلى ربه فسيجد خيراً من هذه الجنة، لقد عزا كل ما هو فيه من النعم لما حققه من أعمال ناجحة قام بها وحده.

من الواضح أن هذا يصب تماماً في منحى الشرك بالله: محاولة نسب كل ما يخص الله إلى غيره، وفقدان الخشية من الله مع الاعتقاد بأن هذا الشريك لديه امتياز خاص، و "حظوة" عند الله.

وهذا ما فعله قوم سبأ، فكانت عاقبتهم أن غرقت بلادهم وجنانهم ليفهموا أنهم ليسوا أصحاب القوة، بل أنها نعمة أُسبغت عليهم فحسب...

الفصل الثامن

النبي سليمان(ع) وملكة سبأ

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

النمل: 44.

ظهرت السجلات التاريخية التي تحكي عن مقابلة سليمان(ع) لملكة سبأ إلى الضوء مع الكشوف الأثرية التي أجريت في جنوب اليمن في سبأ القديمة، فقد كشفت التحريات التي أجريت على آثار تلك المنطقة، أن ملكة عاشت في المنطقة ما بين 1000 و 590 قبل الميلاد قد سافرت شمالاً باتجاه القدس.

تعرض سورة النمل لتفاصيل الأحداث التي جرت بين هذين القائدين، والقوة الاقتصادية والعسكرية لبلادهما ونظام الحكم فيها، تبدأ القصة التي تحتل أكبر جزء من سورة النمل، بالإشارة إلى ملكة سبأ والأخبار التي نقلها الهدهد ـ أحد أعضاء جيش سليمان (ع) أليه:

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

النمل: 22 ـ 27.

بعد أن تلقى سليمان(ع) هذه الأخبار من الهدهد أعطاه أوامره:

﴿**اذْهَبْ بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ**﴾ النمل: 28.

فيما بعد، يخبرنا القرآن عن الأحداث التي جرت في سبأ بعد تلقي الملكة لكتاب سليمان(ع):

﴿**قَالَتْ يَاأَيُّها المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّه مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّه بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَآ أَيُّها المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ والأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذاَ دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوآ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَمَآ آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُم بِهَدِيَّتِكُم تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَآ أَيُّها المَلأُ أَيُّكُم يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا العِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّها كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْها قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ النمل: 29 ـ 44.

قصر سليمان(ع)

تأتي الآيات والمقاطع التي تتحدث عن ملكة سبأ على ذكر النبي سليمان(ع) أيضاً، يذكر لنا القرآن الكريم تفاصيل أخرى عن القصر إلى جانب وصف عظمته وعظمة القصر والمملكة، يحتوي القصر على قطع فنية مدهشة وأشياء ثمينة أخرى تثير إعجاب كل من يراها، أما مدخل القصر فقد صنع من الزجاج، ويصف لنا القرآن هذا القصر وتأثيره على ملكة سبأ:

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّه صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ النمل: 44.

يطلق على قصر سليمان في الأدب اليهودي اسم "معبد سليمان"،لم يبق من هذا القصر أو من هذا المعبد سوى "الحائط الغربي" فقط، وهو نفسه الذي يطلق عليه اليهود اسم "حائط المبكى" (وهذه وجهة نظر المؤلف)(()، السبب وراء دمار هذا القصر وعدة مناطق أخرى في القدس هو السلوك المتكبر والعبثي للأجيال اللاحقة من اليهود، يخبرنا القرآن عن هذا في سورة الإسراء:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِي إِسرائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُم عِبَاداً لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُم وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُم وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ الإسراء: 4 ـ 7.

لقد استحق أولئك الذين تذكرهم الآيات العقاب لعصيانهم وكفرهم بأنعم الله، وبهذا وقع عليهم العذاب، لقد ظلوا دائمي التجوال في الأصقاع والبلدان دون وطن إلى أن وصلوا إلى الأرض المقدسة أيام الملك سليمان، إلا أنهم لم يلبثوا أن أصابهم الدمار مرة أخرى لانتهاكهم كل الحدود وعصيانهم وفسادهم المتأصل، وعاد اليهود في الماضي القريب ليحتلوا نفس المنطقة، وليعبثوا في الأرض فساداً، تماماً كما فعلوا قبل الإنذار الأول



تضمن قصر سليمان أحدث تقنيات وفنون عصره وأروع المظاهر الجمالية، يظهر في الصورة أعلاه مركز القدس خلال حكم الملك سليمان:

1) الباب الجنوبي الغربي 2) قصر الملكة 3) قصر سليمان 4) مدخل يتضمن 32 عموداً 5) محكمة القانون 6) غابة لبنان 7) منــزل الكهنة العظماء 8) مدخل المعبد 9) باحة المعبد 10) المعبد.



قصر سليمان

بعد دمار معبد سليمان لم يبق سوى الحائط الغربي الذي حوله اليهود إلى »حائط المبكى«.
وبعد فتح المسلمين للقدس في القرن السابع، بنى المسلمون مسجد »عمر وقبة الصخرة« حيث كان المعبد مبنياً في يوم من الأيام، ولا تزال القدس تحتفظ بهذا، تظهر قبة الصخرة إلى اليمين.

الفصل التاسع

أصحاب الكهف

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وِالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ الكهف: 9.

تسمى السورة الثامنة عشرة من القرآن الكريم سورة "الكهف" وهي تحكي قصة مجموعة من الشبان أووا إلى أحد الكهوف ليختفوا عن أعين حاكم يكفر بالله ولا يؤمن بوجوده ويضطهد المؤمنين من قومه، وتطالعنا الآيات بهذه القصة:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً * إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوآ أَمَداً * نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِم إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلهاً لَّقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطاً * هَؤلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّولا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُم ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِم لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنهُمْ رُعْباً * وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُم قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا

يَوماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوآ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلى المَدِينَةِ فَلْيَنظُر أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُم يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوآ إِذاً أَبَداً * وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوآ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْـنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِم قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً * سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُم كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً * وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُل عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً * وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً * قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَالَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ الكهف: 9 ـ 26.

يقول الاعتقاد السائد عن أصحاب الكهف الذين تمتدحهم الكتب الإسلامية والمسيحية على حد سواء: إنهم كانوا يعيشون في ظل الامبراطور الروماني الطاغية ديسيوس، لقد وقف هؤلاء الفتية في وجه طغيان ديسيوس وأنذروا قومهم ونصحوا لهم المرة تلو المرة أن يتمسكوا بدين الله ولا يتركوه، ولكن إهمال قومهم لدعوتهم وتجاهلهم لها بالإضافة إلى الاضطهاد الذي واجهوه من ذلك الحاكم الطاغية والذي وصل إلى حد الموت، دفعهم إلى مغادرة موطنهم.

تكشف السجلات التاريخية عن عدد من الأباطرة الذين مارسوا سياسة الاضطهاد والإرهاب والتعذيب في حق المؤمنين من المسيحيين الأوائل الذين كانوا متمسكين بالمعتقد المسيحي الأصلي الصافي.

كتب الحاكم الروماني بيلينوس (69 ـ 113 بعد الميلاد)، الذي كان يحكم شمال الأناضول، إلى الامبراطور تريانوس رسالة يخبره فيها عن مجموعة من المسيحيين عوقبوا بسبب رفضهم عبادة تمثال الامبراطور، وتعتبر هذه الرسالة إحدى أهم الوثائق التي تثبت الاضطهاد

الذي تعرض له المسيحيون الأوائل في ذلك الوقت، وفي ظل ظروف كهذه رفض الفتية الذين طلب منهم عبادة تمثال الامبراطور الإذعان للأمر وقالوا:

﴿... فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَد قُلْنَا إِذاً شَطَطاً * هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ الكهف: 14 ـ 15.

أما بالنسبة للمنطقة التي عاش فيها أصحاب الكهف فقد اختلفت حولها الآراء، إلا أن أقربها للحقيقة هو أنها منطقة طرسوس.

جميع المصادر المسيحية تحدد "إيفسوس" على أنها هي منطقة الكهف الذي أوى إليه الفتية المؤمنون، ويوافق بعض الباحثين والمفسرين المسلمين على ذلك؛ إلا أن آخرين يوضحون بالتفصيل أن إيفسوس ليس هو مكان الكهف، ويحاولون إثبات طرسوس بوصفها المكان الصحيح، على كل حال ستتناول هذه الدراسة كلا المنطقتين. ومع الاختلاف على المنطقة يتفق الباحثون والمفسرون المسلمون والمسيحيون على أن هذه الحادثة وقعت في زمن الامبراطور الروماني ديسيوس (ويسمى أيضاً ديسيانوس) حوالي 250 بعد الميلاد.

من المعروف أن ديسيوس مع نيرون كانا أكثر الأباطرة الرومان اضطهاداً للمسيحيين، فخلال فترة حكمه القصيرة فرض ديسيوس على كل فرد من الشعب أن يقدم أضحية لآلهة الرومان، كان على الجميع أن يمتثلوا ويقدموا النذور لتلك الأوثان، بل ويحصلوا على شهادة تفيد بأنهم قد قاموا بذلك ليقدموها إلى موظفي السلطة، ومن لا يفعل ذلك يُعدم، تقول المصادر المسيحية: إن السواد الأعظم من المسيحيين رفضوا هذه الوثنية، وبدؤوا يهربون من مدينة إلى أخرى، قد يكون أصحاب الكهف مجموعة من هؤلاء المسيحيين الأوائل.

هنا علينا التركيز على نقطة مهمة، وهي: أن هذا الموضوع يروى من قبل بعض المسلمين والمسيحيين والباحثين والمفسرين على شكل قصة، مما جعله يتحول إلى أسطورة نتيجة للإضافات والأكاذيب التي أدخلت عليه، إلا أنه يبقى حدثاً تاريخياً حقيقياً.

هل كان أصحاب الكهف في إيفسوس؟

يشار إلى عدة أماكن ومدن على أنها المناطق التي عاش فيها أصحاب الكهف، السبب في هذا التنوع في الأقاويل: أن الناس يتمنون أن يكون هؤلاء الفتية الشجعان جزءاً منهم وأنهم عاشوا في مدينتهم، بالإضافة إلى التشابه الكبير بين كهوف هذه المناطق، على سبيل المثال: يوجد في جميع هذه المناطق تقريباً أماكن للعبادة يقال: إنها بنيت على هذه الكهوف.

وكما هو معروف، تعتبر إيفسوس مكاناً مقدساً عند المسيحيين، والسبب: هو أن هناك منـزلاً في هذه المدينة يقولون: إنه منـزل مريم العذراء، والذي تحول فيما بعد إلى كنيسة، فمن المحتمل إذاً أن يكون أصحاب الكهف قد أقاموا في أحد هذه الأماكن المقدسة، وتذهب بعض المصادر المسيحية إلى أبعد من ذلك فتؤكد أن هذا هو مكان تواجد أصحاب الكهف.

أقدم المصادر في هذا الموضوع هو القسيس السوري جيمس قسيس ساروق (ولد عام 452 ميلادي)، اقتطف المؤرخ الشهير جيبون العديد من مقاطع الدراسة التي أوردها جيمس في كتابه "انهيار الامبراطورية الرومانية". وحسب رواية هذا الكتاب: فإن الامبراطور الذي قام بتعذيب سبعة من المؤمنين المسيحيين وأجبرهم على الاختفاء داخل الكهف هو ديسيوس، حكم ديسيوس في الامبراطورية الرومانية ما بين (249 ـ 251 ميلادي)، وتميز حكمه بالتعذيب الذي كان يمارس على أتباع عيسى. بالنسبة للمفسرين المسلمين فمنطقة أهل الكهف هي "أفسوس" أما جيبون فهو يرى أنها "إفسوس". وبحكم وقوعها على الشاطئ الغربي من الأناضول، فقد كانت من أكبر الموانئ البحرية في الامبراطورية الرومانية، ويطلق على آثار هذه المدينة اليوم "مدينة إفس الأثرية".

حسب المصادر الإسلامية: فإن اسم الامبراطور الذي استيقظ فتية الكهف في عهده هو "تيسيوس"، أما جيبون فيقول: إن اسمه "ثودوسيوس الثاني". حكم هذا الامبراطور ما بين 408 ـ 450 ميلادي، بعد أن تحولت الامبراطورية إلى المسيحية.

عودة إلى الآيات التي تصف مدخل الكهف، يقول بعض المفسرين: إن مدخل الكهف كان إلى الشمال لا تدخله أشعة الشمس ، وبهذا لا يرى من يمر بالكهف شيئاً مما يوجد في

داخله، تشير الآية الكريمة إلى ذلك:

﴿ وَتَرى الشَّمْسَ إذا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِم ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴾ الكهف: 17.

يقول الأثري الدكتور موسى باران في كتابه "إفسوس":

إن هذه المنطقة هي المكان الذي عاش فيه الفتية المؤمنون، ويضيف: "في سنة 250 ميلادي اختار سبعة فتية الدين المسيحي ورفضوا الوثنية، وفي محاولة منهم للخروج وجد هؤلاء الفتية كهفاً في المنحدر الشرقي من جبل بيون، رأى الجنود الرومان ذلك فبنوا جداراً على مدخل الكهف[45]".

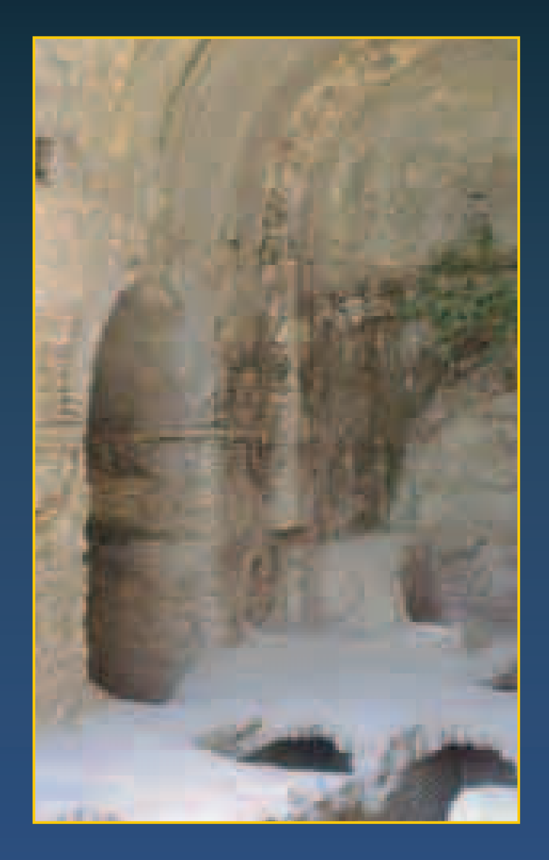
واليوم يشاهد العديد من المباني الدينية وقد بنيت فوق هذه الحجارة والقبور، أظهرت الحفريات التي قام بها المعهد الاسترالي الأثري عام 1926 أن الآثار التي ظهرت على سفح جبل بيون تعود إلى بناء تم تشييده على اسم أصحاب الكهف في منتصف القرن السابع (خلال حكم ثيودوسيوس الثاني).[46]

هل كان أصحاب الكهف في طرسوس؟

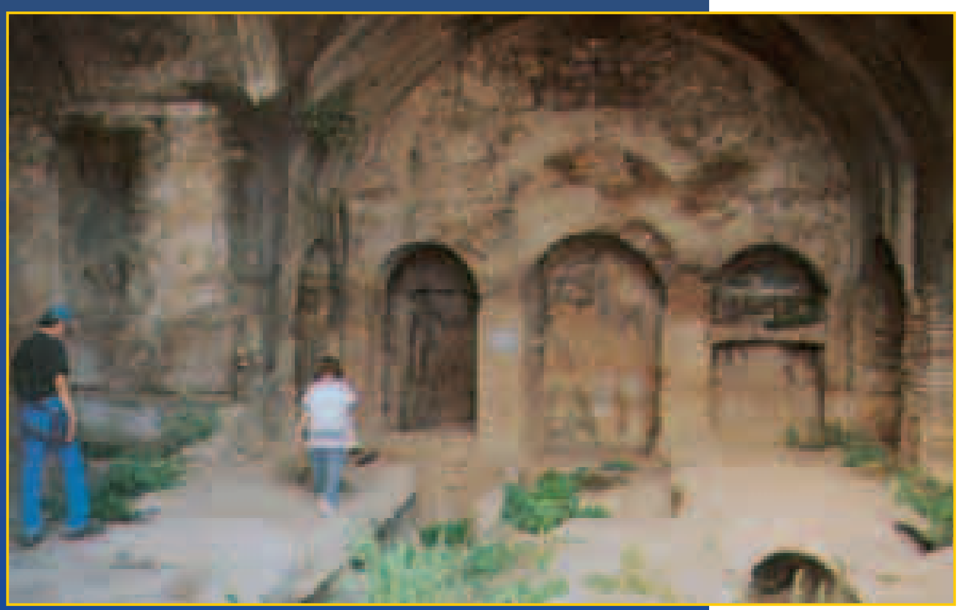
طرسوس هي المكان الثاني الذي يشار إليه على أنه المنطقة التي أقام بها أصحاب الكهف، في الحقيقة يوجد كهف يشبه في أوصافه كثيراً الوصف الذي جاء في القرآن وهو موجود على جبل يسمى "إينسلوس" أو "بينسيلوس"، إلى شمال غرب طرسوس.

الغالبية العظمى من البحاثة المسلمين يعتقدون أن طرسوس هي مكان إقامة أصحاب الكهف، يحدد أحد أكبر مراجع التفسير الإسلامية وهو الطبري اسم الجبل الذي يوجد فيه الكهف على أنه "بينيكيلوس" في كتابه "تاريخ الأمم" ويضيف أن هذا الجبل يوجد في طرسوس[47].

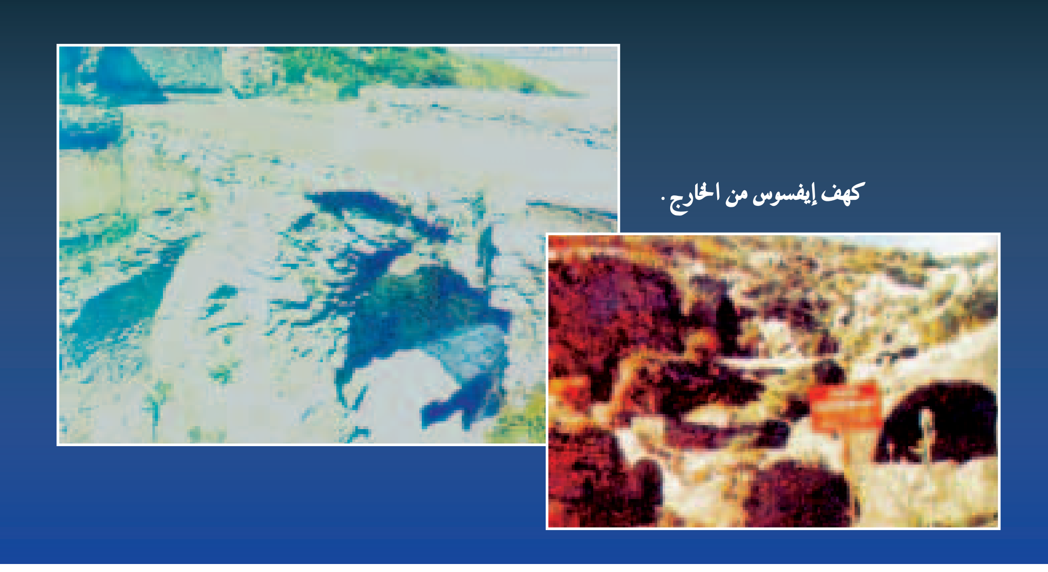
كذلك يوافق محمد أمين، وهو باحث كبير ومرجع من مراجع تفسير القرآن ، عليأن اسم



المدخل الداخلي لكهف في إيفسوس، الذي يُعتقد أنه الكهف الذي أوى إليه أصحاب الكهف.







كهف إيفسوس من الخارج.

الجبل هو" بينيكيلوس" وأنه موجود في طرسوس، هذا الاسم بينيكيلوس يلفظ في بعض الأحيان "إينكيولس". وكما يقول: فإن هذا الاختلاف بين الكلمتين سببه إما الاختلاف في لفظ حرف الباء، أو سقوط هذا الحرف من الكلمة الأصلية وهو ما يسمى "تآكل الكلمة التاريخي".[48]

يقول فخر الدين الرازي ـ وهو باحث إسلامي آخر معروف ـ: " بالرغم من أن هذه المنطقة تسمى إفسوس، إلا أن القصد هنا هو طرسوس، لأن إيفسوس ماهو إلا الاسم الآخر لطرسوس."[49]

ولا يختلف الأمر عند المفسرين البيضاوي والنسفي وكذلك في تفسير الجلالين والتبيان، والعديد من الباحثين الإسلاميين الآخرين، حيث يجمع هؤلاء على أن المكان هو طرسوس بالتحديد، ويفسرون قوله تعالى: ﴿ **وَتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وإذا غَرَبَت تَّقْرِضُهُم ذَاتَ الشِّمَالِ** ﴾ على أن مدخل الكهف يتجه إلى الشمال.[50]

وفي عهد الامبراطورية العثمانية أثار موضوع أصحاب الكهف اهتمام الباحثين، فقاموا بإجراء بعض الأبحاث عنه، توجد بعض المراسلات والمعلومات المتبادلة حول هذا الموضوع في أرشيف رئاسة الوزراء العثمانية، على سبيل المثال: في الرسالة التي أرسلتها الإدارة المحلية في طرسوس لرئيس الخزانة العثماني، يوجد طلب رسمي مع رسالة مرفقة تتضمن طلباً بتخصيص



كهف طرسوس الذي يعتقد أنه يعود إلى أهل الكهف.

رواتب للأفراد الذين يقومون بتنظيف وصيانة كهف "أصحاب الكهف"، وقد تضمن الرد على هذه الرسالة بأنه لكي يتم تخصيص رواتب لأشخاص كهؤلاء من خزينة الدولة، لا بد من التحقق من المنطقة على أنها فعلاً منطقة أصحاب الكهف، وكانت التحريات التي أجريت بناء على ذلك مفيدة جداً في تحديد الموقع.

وجاء في التقرير الذي نظم من قبل المجلس الوطني: "يقع إلى الشمال من طرسوس في إمارة أضنة جبل يبعد ساعتين عن طرسوس، ومدخل هذا الكهف يتجه نحو الشمال تماماً كما ذكر في القرآن".[51]

وبقيت المناقشات والجدل القائم حول الزمان والمكان الذي عاش فيه أصحاب الكهف تدفع بالسلطات إلى إجراء المزيد من الأبحاث حول الموضوع، مما يستدعي العديد من التعليقات ووجهات النظر.

وإذن: حتى الآن لم يثبت أي شيء بهذا الشأن، ويبقى السؤال: في أي زمن عاش هؤلاء المؤمنون؟ وأين يقع كهفهم الذي ذكره القرآن؟ دون جواب شافٍ...

الخـاتمـة

﴿ أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ الروم: 9.

يشترك الأقوام الذين سردنا قَصَصَهم حتى الآن في صفات مشتركة، مثل: مخالفة أوامر الله وعصيانها، الشرك بالله، التكبر والعلو في الأرض، اغتصاب حقوق الآخرين ظلماً، ممارسة الشذوذ الجنسي، والظلم. هناك صفة أخرى شائعة بينهم، وهي: اضطهاد وظلم المسلمين الذين يعيشون إلى جوارهم، لقد حاولوا بشتى الوسائل لإرهابهم وبث الرعب في قلوبهم.

ليس الهدف من وراء السرد القرآني لهذه العبر ـ بالطبع ـ إعطاء القارئ دروساً تاريخية، يقول لنا القرآن: إن هذه القَصص عبر وأمثال، فهؤلاء الأنبياء الذين هلك أقوامهم يرشدون من تلاهم إلى الطريق الصحيح:

﴿ **أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى** ﴾ طه: 128.

وإذا اعتبرنا هذه "الأمثال"، فسنجد أن أجزاء من مجتمعاتنا ليست بأفضل من الأقوام التي أبيدت، والتي يصفها القصص القرآني: بالانحلال والعصيان.

على سبيل المثال: تحتوي معظم مجتمعاتنا في أيامنا هذه على نسبة عالية من السكان الذين يمارسون اللواط والشذوذ الجنسي، مما يذكرنا "بقوم لوط"، فالعديد من الشاذين جنسياً يقوون مع من يعدون من وجهاء المجتمع حفلات جنسية جماعية،أي أنهم سبقوا في هذا الأنحراف

سكان وأهالي سدوم وغومورا.

جميع المجتمعات التي استعرضناها أهلكت بكوارث طبيعية: زلازل، أعاصير، فيضانات وما إلى هنالك، كذلك المجتمعات التي تسير في طريق الضلال وتتجرأ على تكرار آثام الأقوام السالفة، ستلاقي نفس العقوبات وبنفس الطريقة.

يجب أن لا ننسى أن الله قادر على إنزال العذاب على من يشاء ووقت ما يشاء، أو يترك من يشاء يعيش حياة عادية ثم يضطره إلى العذاب في الآخرة، يقول الله تعالى في سورة العنكبوت:

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ العنكبوت: 40.

يخبرنا القرآن أيضاً عن مؤمن آل فرعون، وهو مؤمن من أسرة فرعون في زمن موسى كان يخفي إيمانه، قال هذا المؤمن لقومه:

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيكُم مِّثْلَ يَومِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَومِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والَّذِينَ مِن بَعْدِهِم وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلماً لِّلعِبَادِ * وَيَا قَومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيكُم يَومَ التَّنَادِ * يَومَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ غافر: 30 ــ 33.

لقد ذكّر جميع الرسل الذين أُرسلوا منذِرين قومَهم بالدار الآخرة، وحاولوا تخويفهم من عذاب الله، تماماً كما فعل هذا المؤمن الذي كان يخفي إيمانه. لقد أمضى الرسل والأنبياء حياتهم في شرح هذه الأمور لأقوامهم مراراً وتكراراً، وخلال هذه الدعوات كان القوم يكيلون لهم الاتهامات بالكذب، أو الطمع في منافع مادي، أو التكبر والاستعلاء ، ثم يعودون لممارسة ماهم عليه دون الالتفات أو التفكير بما يقوله هؤلاء الرسل، ومنهم من ذهب إلى أبعد من ذلك فحاول قتل المؤمنين أو طردهم، وفي جميع الأحوال كان عدد المؤمنين قليلاً في كل مرة، وعند وقوع العذاب ينجي الله الأنبياء وأتباعهم فقط.

بالرغم من مرور آلاف السنين، وحدوث الكثير من التغيرات في الأماكن والتقنيات والحضارات التي طرأت على البشرية، إلا أن البُنى والأنظمة الاجتماعية للكفرة والتي أتينا على ذكرها لم تتغير، فكما ذكرنا، يوجد قسم من مجتمعنا البشري يتصف بكافة مقومات الفساد التي كانت عليها تلك الأقوام التي ذكرها القَصص القرآني، فكما كان قوم مَدْيَنَ ينقصون الكيل، تغص مجتمعاتنا اليوم بالمخادعين والمحتالين. وكذلك هناك مجموعات شاذة جنسياً لا تقل في فسادها وانحرافها عن قوم لوط،ويتم الدفاع عنهم في كل فرصة من قبل بعض الاوساط. جزء كبير من المجتمع قائم على أناس متكبرين كافرين للنعم مثل قوم سبأ، غير شاكرين لأَنْعُمِ الله وعطائه مثل قوم إِرَم، يمتهنون المؤمنين ويكيلون لهم أنواع الأذى مثل قوم نوح، وظالمين كقوم عاد.

هذه إشارات وعلامات...

علينا أن نتذكر دائماً أنه مهما بلغت التغيرات في المجتمعات، ومهما كان مستوى التقدم التقني الذي يعيشون فيه، أو الذي قد يصلون إليه، فإن هذا كله لا يعني شيئاً وليس من الأهمية في شيء.

لا شيء من هذا ينجي من عذاب الله، يذكرنا الله جميعاً بهذه الحقيقة:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الروم: ٩.

مغالطات نظرية التطور

إنّ نظرية التّطور أو الدّراوينية هي نظرية ظهرت لتناهض فكرة خلق الأحياء ولكنها لم تتجاوز حد كونها سفسطة لا تمت إلى العلم بأية صلة إضافة إلى كونها نظرية بعيدة عن أي نجاح وانتشار. وتدّعي هذه النظرية أن الحياة نشأت من مواد غير حية نتيجة للمصادفات العمياء، ولكنّ هذا الإدّعاء سرعان ما تهاوى أمام ثبوت خلق الأحياء وغير الأحياء من قبل الله عز وجل. فالذي خلق الكون ووضع فيه الموازين الدقيقة هو بلا شك الخالق الفاطر سبحانه وتعالى. ونظرية التّطور لا يمكن لها أن تكون صائبة طالما تشبثت بفكرة رفض "خلق الله للكائنات" وتبني مفهوم "المصادفة" بدلا عنها.

وبالفعل عندما نتفحص جوانب هذه النظرية من كافة أبعادها نجد أن الأدلة العلمية تفنّدها الواحد بعد الآخر، فالتصميم الخارق الموجود في الكائنات الحية أكثر تعقيدا منه في الكائنات غير الحية. ومثال على ذلك الذّرات فهي موجودة وفق موازين حساسة للغاية ونستطيع أن نميز هذه الموازين بإجراء الأبحاث المختلفة عليها إلاّ أنّ هذه الذّرات نفسها موجودة في العالم الحي وفق ترتيب آخر أكثر تعقيدا، فهي تعتبر مواد أساسية لتركيب البروتينات والأنزيمات والخلايا وتعمل في وسط له آليات ومعايير حساسة إلى درجة مدهشة.

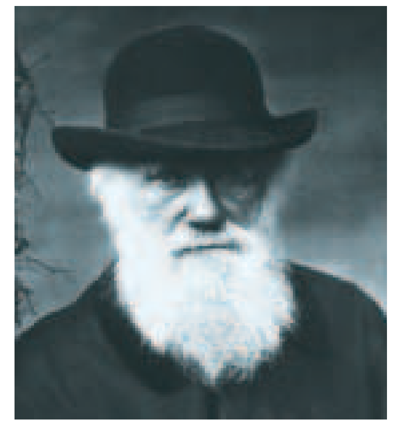
إنّ هذا التصميم الخارق كان سببا رئيسيا لتفنيد مزاعم هذه النظرية بحلول نهايات القرن العشرين

.

المصاعب التي هدمت الدراوينية

ظهرت هذه النّظرية بصورة محددة المعالم في القرن التاسع عشر مستندة إلى التراكمات الفكرية والتي تمتد جذورها إلى الحضارة الإغريقية، ولكنّ الحدث الذي بلور هذه النظرية وجعل لها موطئ قدم في دنيا العلم هو صدور كتاب "أصل الأنواع" لمؤلفه تشارلس داروين. ويعارض المؤلف في كتابه عملية خلق الكائنات الحية المختلفة من قبل الله سبحانه وتعالى، وبدلا من ذلك يدعو إلى اعتقاده المبني على نشوء كافة الكائنات الحية من جد واحد، وبمرور الزمن ظهر الاختلاف بين الأحياء نتيجة حدوث التغييرات الطفيفة.

إنّ هذا الادعاء الداروويني لم يستند على أي دليل علمي ولم يتجاوز كونه "جدلا منطقيا" ليس إلاّ باعترافه هو شخصيا حتى أن الكتاب احتوى على باب باسم "مصاعب النظرية" تناول بصورة مطولة اعترافات داروين نفسه بوجود العديد من الأسئلة التي لم تستطع النظرية أن تجد لها الردود المناسبة لتشكل بذلك ثغرات فكرية في بنيان النظرية.



وكان يتمنى أن يجد العلم بتطوره الردود المناسبة لهذه الأسئلة ليصبح التطور العلمي مفتاح قوة للنظرية بمرور الزمن. وهذا التمني طالما ذكره في كتابه، ولكن العلم الحديث خيب أمل داروين وفند مزاعمه واحدا بعد الآخر.

ويمكن ذكر ثلاثة عوامل رئيسية أدت إلى انتهاء الداروينية كنظرية علمية وهي:

1) إنّ النظرية تفشل تماما في إيجاد تفسير علمي عن كيفية ظهور الحياة لأول مرة.

2) عدم وجود أي دليل علمي يدعم فكرة وجود "آليات خاصة للتطور" كوسيلة للتكيف بين الأحياء.

3) إنّ السّجلات لحفريات المتحجرات تبين لنا وجود مختلف الأحياء دفعة واحدة عكس ما تدعيه نظرية التطور.

وسنشرح بالتفصيل هذه العوامل الثلاثة.

أصل الحياة: العائق غير المحلول أبدا

تدّعي نظرية التّطور أنّ الحياة والكائنات الحية بأكملها نشأت من خلية وحيدة قبل 3,8 مليار سنة. ولكن كيف يمكن لخلية حية واحدة أن تتحول إلى الملايين من أنواع الكائنات الحية المختلفة من حيث الشكل والتركيب؟ و إذا كان هذا التحول قد حدث فعلا فلماذا لم توجد أية متحجرات تثبت ذلك؟. لم تستطع النظرية الإجابة على هذه الأسئلة، وقبل الخوض في هذه التفاصيل يجب التوقف عند الإدعاء الأول والمتمثل في تلك "الخلية الأم". ترى كيف ظهرت إلى الوجود؟ تدعي النظرية أن هذه الخلية ظهرت إلى الوجود نتيجة المصادفة وحدها وتحت ظل ظروف الطبيعة دون أن يكون هنالك أي تأثير خارجي أو غير طبيعي أي أنها ترفض فكرة الخلق رفضا قاطعا، بمعنى آخر تدعي النظرية أن هذه الخلية ظهرت بفعل القوانين الطبيعية دون وجود أي تصميم أو تخطيط بل عن طريق المصادفات العشوائية. فحسب هذه النظرية قامت مواد غير حية بإنتاج خلية حية نتيجة المصادفات. ولكن هذا الزعم يتناقض مع أسس القوانين البيولوجية الموجودة.

الحياة تنشأ فقط من الحياة

لم يتحدث تشارلس داروين أبدا عن أصل الحياة في كتابه المذكور، والسبب يتمثّل في طبيعة المفاهيم العلمية التي كانت سائدة في عصره والتي كانت تتقبل فرضية تكون الأحياء من مواد بسيطة جدا. وكان العلم آنذاك ما يزال تحت تأثير نظرية "التولد التلقائي" التي كانت تفرض سيطرتها منذ القرون الوسطى ومفادها أنّ موادا غير حية قد تجمعت بالمصادفة و أنتجت موادا حية. وهناك بعض الحالات اليومية كانت تسوق البعض إلى تبني هذا الاعتقاد مثل تكاثر الحشرات في فضلات الطّعام وتكاثر الفئران في صوامع الحبوب. ولإثبات هذه الادّعاءات الغريبة كانت تجري بعض التجارب مثل وضع حفنة من الحبوب على قطعة بالية ووسخة من قماش وعند الا نتظار قليلا ستبدأ الفئران في الظهور حسب اعتقاد الناس في تلك الفترة .



نجح لويس باستور في إثبات بطلان النظرية القائلة بأن "المواد الحية تنشأ من مواد غير حية" عن طريق إجراء تجارب ناجحة و بالتالي نسف إحدي دعائم نظرية التطور.

وكانت هناك ظاهرة أخرى وهي تكاثر الدود في اللحم فقد ساقت النّاس إلى هذا الاعتقاد الغريب واتخذت دليلا له ولكن تم إثبات شيء آخر فيما بعد وهو أن الدود يتم جلبه بواسطة الذباب الحامل ليرقاته والذي يحط على اللحم للتغذية عليه. وفي الفترة التي ألف خلالها داروين كتابه "أصل الأنواع" كانت الفكرة السائدة عن البكتيريا أنها تنشأ من مواد غير حية، ولكن أثبتت التطورات العلمية بعد خمس سنوات فقط من تأليف الكتاب عدم صحة ما جاء فيه وذلك عن طريق الأبحاث التي أجراها عالم الأحياء الفرنسي لويس باستير، ويلحض باستير نتائج أبحاثه كما يلي: "لقد أصبح الإدعاء القائل بأن المواد غير الحية تستطيع أن تنشئ الحياة في مهب الريح" [52]. وظل المدافعون عن نظرية التطور يكافحون لمدة طويلة ضد الأدلة العلمية التي توصل إليها باستير، ولكن العلم بتطوره عبر الزمن أثبت التعقيد الذي يتصف به تركيب الخلية، وبالتالي استحالة ظهور مثل هذا التركيب المعقد من تلقاء نفسه .

الجهود المبذولة دون جدوى في القرن العشرين

لقد كان الأخصّائي الروسي في علم الأحياء الكسندر أوبارين Alexander Oparinأول من تناول موضوع أصل الحياة في القرن العشرين، وأجرى أبحاثا عديدة في ثلاثينات القرن العشرين لإثبات أن المواد غير الحية تستطيع إيجاد مواد حية عن طريق المصادفة، ولكن أبحاثه باءت بالفشل الذريع واضطر أن يعترف بمرارة قائلا: "إنّ أصل الخلية يعتبر نقطة سوداء مظلمة في نظرية التطور" [53]. ولم ييأس باقي العلماء من دعاة التطور واستمروا في الطريق نفسه الذي سلكه أوبارين وأجروا أبحاثهم للتوصل إلى أصل الحياة. وأشهر بحث أجري من قبل الكيميائي الأميركي ستانلي ميللر سنة 1953 حيث افترض وجود مواد ذات غازات معينة في الغلاف الجوي في الماضي البعيد ووضع هذه الغازات مجتمعة في مكان واحد وجهزها بالطاقة، واستطاع أن يحصل على بعض الأحماض الأمينية التي تدخل في تركيب البروتينات .

واعتبرت هذه التجربة في تلك السّنوات خطوة مهمة إلى الأمام ولكن سرعان ما ثبت فشلها لأن المواد المستخدمة في البحث لم تكن تمثل حقيقة المواد التي كانت موجودة في الماضي السحيق، وهذا الفشل ثبت بالتأكيد في السنوات اللاحقة .[54]



لقد مني ألكسندر أوبارين بالفشل الذريع في جميع تجاربه التي أجراها للتوصل إلى تفسير تطوري لأصل الحياة.

وبعد فترة صمت طويلة اضطر ميللر نفسه أن يعترف بأن المواد التي استخدمها في إجراء التجربة لم تكن تمثل حقيقة المواد التي كانت توجد في الغلاف الجوي في سالف الزمان[55].

وباءت جميع التجارب التي أجراها الداروينيون طيلة القرن العشرين بالفشل، وهذه الحقيقة تناولها جيفري بادا Jeffrey Bada الأخصائي في الكيمياء الجيولوجية في المعهد العالي في سان ديغو سيكربس ضمن مقال نشره سنة 1998 على صفحات مجلة "الأرض" ذات التوجه الدارويني وجاء في المقال ما يأتي:

" نحن نودع القرن العشرين و مازلنا كما كنا في بدايته نواجه معضلة لم نجد لها إجابة وهي كيف بدأت الحياة ؟ ".[56]

الآليات الخيالية لنظرية التطور

القضية الثانية التي كانت سببا في نسف نظرية داروين كانت تدور حول " آليات التطور" فهذا الإدعاء لم يثبت له أي مكان في دنيا العلم لعدم صحته علميا ولعدم احتوائه على قابلية التطوير الحيوي.

وحسب ادعاء داروين فإنّ التطور حدث نتيجة "الانتخاب الطبيعي" وأعطى أهمية استثنائية لهذا الإدّعاء حتى أنّ هذا الاهتمام من قبله يتضح من اسم الكتاب الذي أسماه "أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي" .

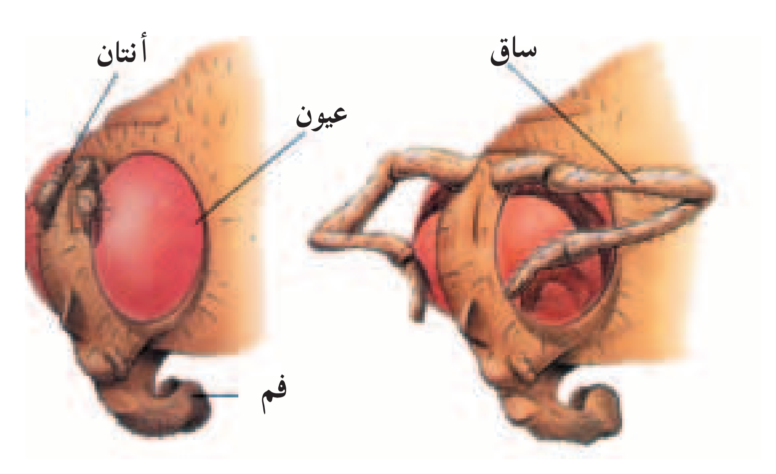
إنّ مفهوم الانتخاب الطبيعي يستند إلى مبدأ بقاء الكائنات الحية التي تظهر قوة وملاءمة تجاه الظروف الطبيعية وعدم انقراضها، فعلى سبيل المثال لو هدد قطيع من الإيلة من قبل الحيوانات المفترسة فإن الأيل الأسرع في العدو يستطيع البقاء على قيد الحياة، وهكذا يبقى القطيع متألفا من أفراد أقوياء سريعين في العدو. ولكن هذه الآلية لا تكفي أن تطور الإيلة من شكل إلى آخر، كأن تحولها إلى خيول مثلا. لهذا السّبب لا يمكن تبني "الانتخاب الطبيعي" كوسيلة للتطور، و حتى داروين نفسه كان يعلم ذلك وأفاد به ضمن كتابه " أصل الأنواع " بما يلي: "طالما لم تظهر تغييرات إيجابية فإن الانتخاب الطبيعي لا يفي بالغرض المطلوب".[57]

تأثير لامارك

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف كانت ستحدث هذه التغييرات الإيجابية ؟ وأجاب داروين على هذا السؤال استنادا إلى أفكار من سبقوه من رجالات عصره مثل لامارك، و لامارك عالم أحياء فرنسي عاش ومات قبل داروين بسنوات كان يدعي أن الأحياء تعاني تغييرات ظاهرية وتورثها إلى الأجيال اللاّحقة وكلما تراكمت هذه التغييرات جيلا بعد جيل أدّت إلى ظهور أنواع جديدة، وحسب ادعائه فإنّ الزّرافات نشأت من الغزلان نتيجة محاولاتها للتغذي على أوراق الأشجار العالية عبر أحقاب طويلة. وأعطى داروين أمثلة مشابهة في كتابه "أصل الأنواع" فقد ادّعى أن الحيتان أصلها قادم من الدببة التي كانت تتغذى على الكائنات المائية مضطرة إلى النزول إلى الماء بين الحين والآخر[58]. إلاّ أن قوانين الوراثة التي اكتشفها مندل والتطور الذي طرأ على علم الجينات في القرن العشرين أدّى إلى نهاية الأسطورة القائلة بانتقال الصفات المكتسبة من جيل إلى آخر، وهكذا ظلت " آلية الانتخاب الطبيعي" آلية غير ذات فائدة أو تأثير من وجهة نظر العلم الحديث.

الداروينية الحديثة والطفرات الوراثية

قام الدّاروينيون بتجميع جهودهم أمام المعضلات الفكرية التي واجهوها خصوصا في ثلاثينات القرن العشرين وساقوا نظرية جديدة أسموها بـ"النظرية التركيبية الحديثة" أو ما عرفت بـ"الداروينية الحديثة "، وحسب هذه النظرية هناك عامل آخر له تأثير تطوري إلى جانب الانتخاب الطبيعي، وهذا



لقد دأب الداروينيون منذ مطلع القرن العشرين على إحداث طفرات وراثية تجريبية على الذّباب لإثبات فوائد هذه الطفرات ،غير أنّ هذه التجارب التي استمرت لعشرات السنين لم تأت سوى بذباب مشوّه ومريض وقاصر. والصورة في الأعلى إلى اليسار تمثل رأس ذبابة الفاكهة بشكله الطبيعي، أما الصورة إلى اليمين فتمثل ذبابة الفاكهة و قد تضررت من الطفرات وراثية.

العامل يتلخص في حصول طفرات وراثية أو جينية تكفي سببا لحدوث تلك التغييرات الإيجابية المطلوبة، وهذه الطفرات تحدث إمّا بسبب التعرض للإشعاعات أو نتيجة خطأ في الاستنساخ الوراثي للجينات .

وهذه النظرية مازالت تدافع عن التطور لدى الأحياء تحت اسم الداروينية الحديثة، وتدعى هذه النظرية بالتفصيل أن الأعضاء والتراكيب الجسمية الموجودة لدى الأحياء والمعقدة التركيب كالعين والأذن أو الكبد والجناح ...الخ لم تظهر أو تتشكل إلا بتأثير حدوث طفرات وراثية أو حدوث تغييرات في تركيب الجينات، ولكن هذا الإدعاء يواجه مطبّا علميا حقيقيا وهو أن الطفرات الوراثية تشكل على الدوام عامل ضرر على الأحياء ولم تكن ذات فائدة في يوم من الأيام. وسبب ذلك واضح جدا فإنّ جزيئة الـDNA معقدة التركيب للغاية وأي تغيير جزيئي عشوائي مهما كان طفيفا لابد وأن يكون له أثر سلبي، وهذه الحقيقة العلمية يعبر عنها العالم الأمريكي ب.ج.رانكاناثان B.G.Ranganathan الأخصائي في علم الجينات كما يلي:

"إنّ الطفرات الوراثية تتسم بالصغر والعشوائية والضرر ولا تحدث إلا نادرا وتكون غير ذي تأثير في أحسن الأحوال. إنّ هذه الخصائص العامة الثلاث توضح أنّ الطفرات لا يمكن أن تلعب دورا في إحداث التطور خصوصا أنّ أيّ تغيير عشوائي في الجسم المعقد لابدّ له أن يكون إمّا ضارا أو غير مؤثر، فمثلا أيّ تغيير عشوائي في ساعة اليد لا يؤدي إلى تطويرها، فالاحتمال الأكبر أن يؤدي إلى إلحاق الضرر بها أو أن يصبح غير مؤثّر بالمرة".[59]

وهذا ما حصل فعلا لأنّه لم يثبت إلى اليوم وجود طفرة وراثية تؤدّي إلى تحسين البنية الجينية للكائن الحي. والشواهد العلمية أثبتت ضرر جميع الطفرات الحاصلة، وهكذا يتضح أنّ هذه الطفرات التي جعلت سببا لتطور الأحياء من قبل الداروينية الحديثة ما هي إلا وسيلة تخريبية التأثير على الأحياء حيث تتركهم معاقين في أغلب الأحيان (وأفضل مثال للطفرة الوراثية الحاصلة لجسم الإنسان هو الإصابة بمرض السرطان) ولا يمكن والحال كذلك أن تصبح الطفرات الوراثية ذات التأثير الضار آلية معتمدة علميا لتفسير عملية التّطور. أمّا آلية الانتخاب الطبيعي فهي بدورها لا يمكن أن تكون مؤثرة لوحدها فقط حسب اعترافات داروين نفسه، وبالتالي لا يمكن أن يوجد مفهوم يدعى بـ"التطور"، أي أنّ عملية التطور لدى الأحياء لم تحدث البتة.

سجلات المتحجرات : لا أثر للمخلوقات الانتقالية أو الحلقات الوسطى

تعتبر سجلاّت المتحجّرات أفضل دليل على عدم حدوث أي من السيناريوهات التي تدّعيها نظرية التطور، فهذه النظرية تدّعي أنّ الكائنات الحيّة من مختلف الأنواع نشأت بعضها من البعض الآخر، فنوع معين من الكائن الحي من الممكن أن يتحول إلى نوع آخر بمرور الزمن وبهذه الوسيلة ظهرت الأنواع المختلفة من الأحياء، وحسب النظرية فإنّ هذا التحول النوعي استغرق مئات الملايين من السنين. واستنادا على هذا الإدعاء ينبغي وجود أنواع انتقالية أو حلقات وسطى طوال فترة حصول التحول النوعي في الأحياء .

على سبيل المثال ينبغي وجود كائنات تحمل صفاتا مشتركة من الزواحف والأسماك لأنها في البداية كانت مخلوقات مائية تعيش في الماء وتحولت بالتدريج إلى زواحف، أو يفترض وجود كائنات ذات صفات مشتركة من الطيور والزواحف لأنها في البداية كانت زواحفا ثم تحولت إلى طيور، ولكون هذه المخلوقات الافتراضية قد عاشت في فترة تحول فلابد أن تكون ذات قصور خلقي أو مصابة بإعاقة أو تشوّه ما، ويطلق دعاة التطور على هذه الكائنات الانتقالية اسم "الحلقات الوسطى".

ولو فرضنا أن هذه "الحلقات الوسطى" قد عاشت فعلا في الأحقاب التاريخية فلا بد أنها وجدت بأعداد كبيرة وبأنواع كثيرة تقدر بالملايين بل بالمليارات، وكان لابد أن تترك أثرا ضمن المتحجرات المكتشفة، ويعبر داروين عن هذه الحقيقة في كتابه:

"إذا صحت نظريتي فلا بد أن تكون هذه الكائنات الحية العجيبة قد عاشت في فترة ما على سطح الأرض ... وأحسن دليل على وجودها هو اكتشاف متحجرات ضمن الحفريات" [60].

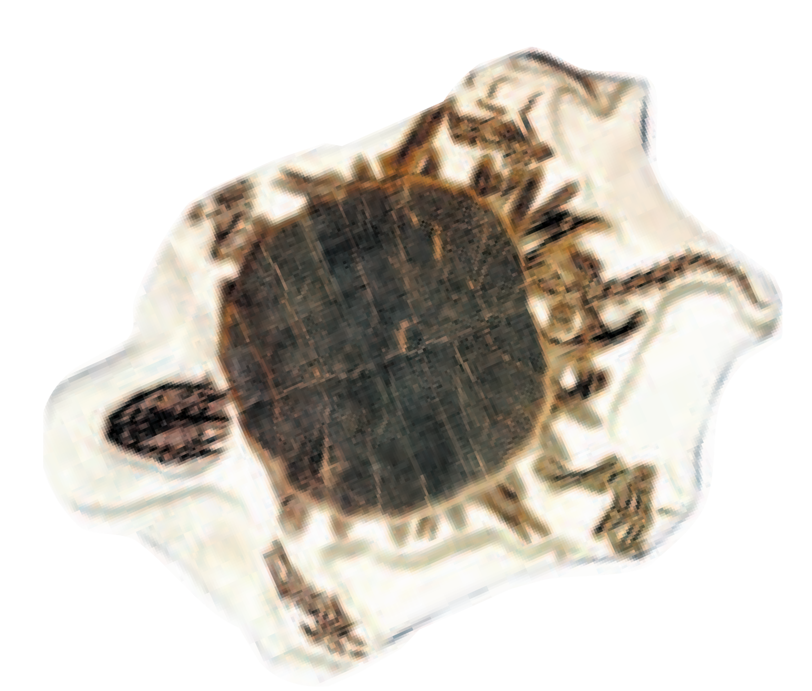
خيبة آمال داروين

أجريت حفريات وتنقيبات كثيرة جدا منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن ولكن لم يعثر على أي أثر لهذه " الحلقات الوسطى أو الأشكال الانتقالية "، وقد أثبتت المتحجرات التي تم الحصول عليها نتيجة الحفريات عكس ما كان يتوقعه الداروينيون من أن جميع الأحياء بمختلف أنواعها قد ظهرت إلى الوجود فجأة وعلى أكمل صورة .

وقد اعترف بهذه الحقيقة أحد غلاة الداروينيّة وهو ديريك وايكر W.Ager Derek الأخصائي البريطاني في علم المتحجرات قائلا:

إنّ مشكلتنا الحقيقية هي حصولنا على كائنات حية كاملة سواء على مستوى الأنواع أو الأصناف عند تفحصنا للمتحجرات المكتشفة، وهذه الحالة واجهتنا دوما دون العثور على أيّ أثر لتلك المخلوقات المتطورة تدريجيا .[61]

أي أن المتحجرات تثبت لنا ظهور الأحياء كافة فجأة دون أي وجود للأشكال الانتقالية. وهذا عكس ما ادعاه داروين طبعا، وهذا تعبير على كون هذه الكائنات الحية مخلوقة لأن التفسير الوحيد لظهور كائن حي فجأة دون أن يكون له جد معين هو أن يكون مخلوقا، وهذه الحقيقة قد قبلها عالم أحياء مشهور مثل دوغلاس فوتويما Douglas Futuyma الذي يقول:



تعتبر سجلات المتحجرات أكبر مانع أمام انتشار نظرية التطور لأن هذه السّجلات تبين أنّ الكائنات الحية قد ظهرت فجأة وبشكلها المعروف دون أن يكون هناك أيّ أو وجود لأنواع بينية تطورية. و إنّ هذه الحقيقة تعتبر تأكيدا على أنّ جميع أنواع الكائنات الحية مخلوقة.

إنّ الخلق والتطور مفهومان أو تفسيران سائدان في دنيا العلم لتفسير وجود الأحياء، فالأحياء إمّا وجدت فجأة على وجه البسيطة على أكمل صورة أو لم تكن كذلك، أي أنها ظهرت نتيجة تطورها عن أنواع أو أجداد سبقتها في الوجود، وإن كانت قد ظهرت فجأة وبصورة كاملة الشكل والتكوين فلابد من قوة لاحد لها وعقل محيط بكل شيء توليا إيجاد مثل هذه الكائنات الحية [62].

فالمتحجرات تثبت أن الكائنات الحية قد ظهرت فجأة على وجه الأرض وعلى أحسن شكل وتكوين، أي أن أصل الأنواع هو الخلق وليس التطور كما كان يعتقد داروين.

القصة الملفقة لتطور الإنسان

إنّ من أهم المواضيع المطروحة للنقاش ضمن نظرية التطور هو بلاشك أصل الإنسان، وفي هذا الصدد تدعي الداروينية بأن الإنسان الحالي نشأ متطورا من كائنات حية شبيهة بالقرد عاشت في الماضي السحيق، وفترة التطور بدأت قبل 4 ـ 5 ملايين سنة وتدعي النظرية وجود بعض الأشكال البينية خلال الفترة المذكورة، وحسب هذا الإدعاء الخيالي هناك أربعة مجاميع رئيسية ضمن عملية تطور الإنسان وهي:

1 ـ أوسترالوبيثيكوس.

2 ـ هومو هابيليس.

3 ـ هومو اريكتوس.

4 ـ هومو سابينس.

يطلق دعاة التطور على الجد الأعلى للإنسان الحالي اسم "أوسترالوسيثيوكس" أو قرد الجنوب، ولكن هذه المخلوقات ليست سوى نوع منقرض من أنواع القرود المختلفة، وقد أثبتت الأبحاث التي أجراها كلّ من الأمريكي البروفيسور تشارلز أوكسنارد Charles Oxnard والبريطاني اللورد سوللي زاخرمان Solly Zuckermanوكلاهما من أشهر علماء التشريح على قرد الجنوب إن هذا الكائن الحي ماهو إلا نوع منقرض من القرود ولا علاقة له بالمرة بالإنسان [63].

والمرحلة التي تلي قرد الجنوب يطلق عليها من قبل الداروينيين اسم "هومو" أو الإنسان، وفي كافة مراحل الـ" هومو" أصبح الكائن الحي أكثر تطورا من قرد الجنوب، ويتشبث الداروينيون بوضع المتحجرات الخاصة بهذه الأنواع المنقرضة كدليل على صحة نظريتهم وتأكيدا على وجود مثل هذا الجدول التطوري الخيالي، ونقول خيالي لأنه لم يثبت إلى الآن وجود أي رابط تطوري بين هذه الأنواع



لا توجد أية بقايا متحجرة تدعم نظرية تطور الإنسان، وبالعكس فإن هذه المتحجرات تثبت و جود حد فاصل أو تباين لا يمكن تجاوزه بين الإنسان و القرد وبالرغم من هذه الحقيقة فإن الداروينيين ما زالوا متشبثين بنظريتهم بواسطة بعض الرّسوم الخيالية والنماذج المجسّمة، وهم يضفون على هذه الرسوم والنماذج اللّمسات والملامح التي تسند آراءهم الخيالية والتي تدور حول وجود كائن حي بين الإنسان و القرد.

المختلفة. و هذه الخيالية في التفكير اعترف بها أحد دعاة نظرية التطور في القرن العشرين وهو أرنست ماير Ernest Mayer قائلا: "إنّ السلسلة الممتدة إلى هومو ساپينس منقطعة الحلقات بل مفقودة"[64].

وهناك سلسلة يحاول الداروينيون إثبات صحتها تتكون من قرد الجنوب (أوسترالوبيثيكوس) هوموهابيليس ـ هومواريكتوس ـ هوموسابنيس أي أن أقدمهم يعتبر جدا للّذي يليه، ولكن الاكتشافات التي وجدها علماء المتحجرات أثبتت أن قرد الجنوب و هوموهابيليس و هومواريكتوس قد وجدت في أماكن مختلفة وفي نفس الفترة الزمنية [65]. والأهم من ذلك هو وجود أنواع من هومو أريكتوس قد عاشت حتى فترات حديثة نسبيا ووجدت جنبا إلى جنب مع هومو ساپينس نياندرتاليسيسن و هوموساپينس (الإنسان الحالي) .[66]

وهذه الاكتشافات أثبتت عدم صحة كون أحدهما جدا للأخر، و أمام هذه المعضلة الفكرية التي واجهتها نظرية داروين في التطور يقول أحد دعاتها وهو ستيفن جي كولد Stephen Jay Gould الأخصائي في علم المتحجرات في جامعة هارفارد ما يأتي:

"إذا كانت ثلاثة أنواع شبيهة بالإنسان قد عاشت في نفس الحقبة الزمنية، إذن ماذا حصل لشجرة أصل الإنسان ؟ الواضح أنه لا أحد من بينها يعتبر جدا للآخر، و الأدهى من ذلك عند إجراء مقارنة بين بعضها البعض لا يتم التوصل من خلالها إلى أية علاقة تطورية فيما بينها".[67]

وبصريح العبارة أن اختلاق قصة خيالية عن تطور الإنسان والتأكيد عليها إعلاميا وتعليميا والترويج لنوع منقرض من الكائن الحي نصفه قرد ونصفه الآخر إنسان ما هو إلا عمل لا يستند إلى أي دليل علمي. وقد أجرى اللورد سوللي زاخرمان البريطاني أبحاثه على متحجرات قرد الجنوب لمدة 15 سنة متواصلة علما أن له مركزه العلمي كأخصائي في علم المتحجرات وقد توصل إلى عدم وجود أية سلسلة متصلة بين الكائنات الشبيهة بالقرد وبين الإنسان واعترف بهذه النتيجة بالرغم من كونه دارويني التفكير.

قام زاخرمان بتأليف جدول خاص للمعرفة أدرج فيها فروع المعرفة التي يعدها علمية ، وكذلك فروع المعرفة التي يعدها خارج نطاق العلم. وحسب جدول زاخرمان تشمل الفروع العلمية والتي تستند إلى أدلة مادية علمي الكيمياء والفيزياء. ويليهما علم الأحياء فالعلوم الاجتماعية وأخيرا، أي في حافة الجدول تأتي فروع المعرفة الخارجة عن نطاق العلم. ووضع في هذا الجزء من الجدول علم تبادل الخواطر والحاسة السادسة والشعور أو التحسس النائي(التلباثي) وأخيرا علم تطور الإنسان ويضيف زاخرمان تعليقا على هذه المادة الأخيرة في الجدول كما يلي:

" عند انتقالنا من العلوم المادّية إلى الفروع التي تمت بصلة إلى علم الأحياء النائي أو الإستشعار عن بعد وحتى استنباط تاريخ الإنسان بواسطة المتحجرات نجد أنّ كل شيء جائز وممكن خصوصا للمرء المؤمن بنظرية التطور حتى أنه يضطر أن يتقبل الفرضيات المتضادة أو المتضاربة في آن واحد".[68]

إذن إنّ القصة الملفقة لتطور الإنسان ليست إلاّ إيمان أعمى من قبل بعض الناس بالتأويلات غير المنطقية لأصل بعض المتحجرات المكتشفة.

التقنية الراقية في العين والأذن

إنّ نظرية التّطور تعجز تمام العجز عن تفسير أمر آخر وهو كيفية وجود هذا المستوى الراقي من التحسس سواء في العين أو في الأذن. وقبل شرح موضوع العين دعونا نطلع ولو بإيجاز على كيفية أداء العين لوظيفة الإبصار، فالضوء المنعكس من جسم ما يسقط على شبكية العين بصورة مقلوبة، وهذا الضوء يتحول عن طريق الخلايا الموجودة في الشبكية إلى إشارات كهربائية تتدفق إلى مركز الإبصار الموجود في مؤخرة المخ، وبعد سلسلة من التفاعلات يتم تفسير هذه الإِشارات وتحويلها إلى صورة لذلك الجسم من قبل مركز الإبصار. و بعد هذا الاستعراض الموجز لنفكر قليلا وكما يأتي: إنّ المخ يكون بمعزل عن

الضوء، أي أن داخله مظلم تماما، والضوء لا يستطيع الولوج داخله، أو بالأحرى لا يستطيع أبدا الوصول إلى مركز الإبصار، وربما كان من أشد الأماكن ظلمة ، ولكن المرء يستطيع الإبصار بواسطة هذا المركز الشديد الظلمة، إضافة إلى كون هذا الإبصار حادا وواضحا إلى درجة مذهلة يعجز عنه العلم المتقدم في القرن الحادي والعشرين أن ينجز مثيلا له، فمثلا انظروا إلى الكتاب الذي بين أيديكم وانظروا ما حولكم هل رأيتم صفاء ووضوحا في الصورة كالتي ترونها الآن؟ إن هذا الصفاء في الصورة لا يمكن أن يرى حتى في أحسن تلفزيون صنع حتى الآن. ومازال المهندسون البارعون يعملون بدأب منذ 100 سنة للحصول على صفاء صورة كالتي ترونها الآن بعيونكم، و انظروا مرة أخرى إلى شاشة التلفزيون وتارة أخرى إلى الكتاب الذي بين أيديكم ،هناك فرق شاسع بين الصورتين من ناحية صفاء الصورة ووضوحها، إضافة إلى كون الصورة التلفزيونية ثنائية الأبعاد أمّا الصورة التي ترونها بعيونكم فثلاثية الأبعاد (مجسمة).

وهناك أبحاث ومشاريع تجري منذ سنوات عديدة لإنتاج أجهزة التلفزيون صورتها ثلاثية الأبعاد وتضاهي الصورة التي تتحسسها عين الإنسان، ونجح الإنسان في صنع هذا التلفزيون ولكن لا يمكن مشاهدة الصّور على شاشته إلا باستخدام نظارة خاصة، إضافة إلى كون الصورة ثلاثية الأبعاد صنعية ليس إلا، فخلفية الصورة تبدو مشوشة والواجهة تبدو كأنها قطعة ورق، ولا يمكن أبدا أن تتشكل صورة مضاهية للصورة التي تكونها عين الإنسان، فالصورة التي تكونها الكاميرا أو التلفزيون لابد وأن تكون مشوشة بعض الشيء أو تفقد جزءا من صفائها. هنا يدعي الداروينيون أن هذا الصفاء والحدة في تشكيل الصورة من قبل العين قد اكتسب بالمصادفة، ولو أخبركم أحدهم بأن التلفزيون الموجود في الغرفة قد تشكل مصادفة أي اجتمعت الذرات مع بعضها وألّفت فيما بينها هذا الجهاز المدعو التلفزيون ، كيف تفسرون هذا الخبر؟ كيف تنجح الذرات في عمل شيء يعجز الملايين من البشر ؟

إذن فكما أنّ من المستحيل أن يظهر جهاز أقل تعقيدا من العين بالمصادفة كذلك العين نفسها والصورة التي تكونها من المستحيل أن يظهرا هكذا بالمصادفة، ونفس الشيء ممكن بالنسبة إلى الأذن، فالأذن الخارجية تقوم باستقبال الموجات الصوتية وتجمعها بواسطة صيوان الأذن وتنقلها إلى الأذن الوسطى والتي تقوم بدورها بتقوية هذه الموجات ونقلها إلى الأذن الداخلية والتي تقوم بتحويل هذه الموجات الصوتية إلى إشارات كهربائية تنتقل إلى المخ، وهنا يحصل مثلما يحصل أثناء الإبصار، فمركز السمع الموجود في المخ يقوم بتأويل هذه الإشارات الكهربائية إلى صوت مسموع .

ويمكن إجراء نفس المناقشة الذهنية أي أن المخّ مقفل أمام الصوت كما هو أمام الضوء، أي أن داخل المخ يكون عديم الصوت مهما كانت الضوضاء عالية في المحيط الخارجي، مع هذا يتم الإحساس

بأنقى الأصوات بواسطة المخ، ويمكنكم بمخكم هذا المعزول عن الصوت سماع اوركسترا تعزف سيمفونية، أو سماع ضوضاء الشارع ولكن لو تم قياس مستوى الصوت داخل المخ بواسطة جهاز متقدم عند لحظة الاستماع للموسيقى الصاخبة فمن المؤكد أن نجد الصمت المطلق داخل المخ .

ومثلما استخدمت التكنولوجيا للحصول على أدق الصور وأوضحها فنفس الشيء يذكر بالنسبة للصوت فالمحاولات جارية منذ عشرات السنين للحصول على أوضح الأصوات وأنـقاها.إن أجهزة تسجيل الصوت وأجهزة الاستماع الى الموسيقى وأجهزة أخرى إلكترونية حساسة للصوت ليست سوى نتاج لهذه المحاولات الجارية. وبالرغم من وجود كل هؤلاء المهندسين والفنيين البارعين وهذه التكنولوجيا المتقدمة لم يتم التوصل حتى الآن إلى درجة النقاء الصوتي للأذن البشرية. فأجهزة الصوت المصنوعة من قبل أحسن الشركات لابد وأن يكون الصوت الذي تصدره معرضا لشيء من التشويش أو فقدان درجة معينة من الوضوح أما الصوت الذي تستقبله الأذن البشرية فيتميز بغاية الوضوح والنقاء، فالأذن البشرية لا تسلك سلوك أجهزة التسجيل أبدا كأن يكون هناك شيء من الضوضاء أو الأزيز المزعج ،إذ يتم استقبال الصوت كما هو دون تغيير، وهذا الأمر موجود وفعال منذ خلق الإنسان وحتى الآن. ولم يكن أي جهاز صنعه الإنسان صوتيا كان أم مرئيا بدرجة وضوح ودقة العين والأذن البشريتين ولكن هناك حقيقة كبرى تقف خلف حاسة السمع والبصر وتعبر عن نفسها بوضوح. فلنسأل أنفسنا:

لمن يعود الشعور الخاص بالسمع والبصر في المخ؟

من الذي يوجد داخل المخ ويشاهد هذا العالم الزاهي الألوان من حولنا أو يستمع إلى أصوات الطيور أو الموسيقى السيمفونية المؤثرة أو يشم رائحة الزهور الزكية ؟

فالإشارات الكهربائية القادمة من الأعضاء الحية الموجودة في الأنف والأذن والعين تذهب إلى المخ ويمكن للمرء أن يطلع على كيفية تحول الإشارة الكهربائية إلى صورة في المخ عن طريق قراءة كتب علم الأحياء أو علم الفيزياء الحيوية أو الكيمياء الحيوية، ولكن هناك حقيقة تتعلق بهذا الأمر لا يمكن أن تجدوها في أي مصدر، من ذا الذي يشم أو يرى أو يسمع داخل المخ ؟ لأنه يوجد في المخ نظام خاص يستطيع الإبصار والسمع والشم دون الحاجة إلى عين أو أذن أو أنف، لمن يعود هذا النظام المتقدم ؟

إن هذا النظام المتقدم ما هو إلا الروح الذي خلقه الله العليم الحكيم، فالروح لا يحتاج إلى العين كي يبصر ولا يحتاج إلى الأذن كي يسمع ولا يحتاج إلى المخ للتفكير فيما هو أبعد من ذلك.حتما أن هذا النظام المتقدم لا يعود إلى المخ المتشكل من الأعصاب أو الخلايا العصبية لذلك يعجز الداروينيون الذين يظنون أن أصل كل شيء هو المادة عن الإجابة على هذه الأسئلة .

فعلى الإنسان أن يفكر مليا أمام هذه الحقيقة العلمية ، فعدة سنتيمترات مكعبة من المخ تستطيع إبصار الكائنات بشكل مجسم (ثلاثي الأبعاد)، وأزهى الألوان بقدرة العزيز القهار فعلى الإنسان أن يخاف ربه ويشكره ويحمده على هذه النعم ويلتجئ إليه.

عقيدة مادية

لقد استعرضنا النظرية الخاصة بالتطور ومدى تناقضها مع الأدلة والشواهد العلمية ومدى تناقض فكرها المتعلق بأصل الحياة مع القواعد العلمية، واستعرضنا أيضا كيفية انعدام التأثير التطوري لكافة آليات التطور التي تدعو إليها هذه النظرية وانعدام وجود أية آثار لمتحجرات تثبت وجود الأشكال الانتقالية أو الحلقات الوسطى للحياة عبر التاريخ، لهذا السبب نتوصل إلى ضرورة التخلي عن التشبث بالنظرية التي تعتبر متناقضة مع قواعد العلم والعقل، ولابد أن تنتهي كما انتهت نظريات أخرى عبر التاريخ والتي ادعت بعضها أن الأرض مركز الكون. ولكن هناك إصرار عجيب على بقاء هذه النظرية في واجهة الأحداث العلمية وهناك البعض يتمادى في تزمته ويتهم أي نقد للنظرية بأنه هجوم على العلم والعلماء .

والسبب يكمن في تبني بعض الجهات لهذه النظرية واعتبارها عقيدة صارمة لا يمكن التخلي عنها، وهذه الجهات يتميز تفكيرها بأنه نابع من المدرسة المادية بل متصلة بالفكر المادي اتصالا أعمى وتعتبر الداروينية التفسير المادي الوحيد للطبيعة.

وأحيانا تعترف هذه الجهات بالحقيقة السابقة، كما يقول ريتشار دليونتن Richard Lewontin أشهر الباحثين في علم الجينات والذي يعمل في جامعة هارفارد و هو من المدافعين الشرسين عن نظرية التطور ويعتبر نفسه ماديا ثم رجل علم :

"نحن نؤمن بالمادية، و نؤمن بأشياء مسلم بها سلفا وهذا الإيمان المسبق بالفلسفة المادية وارتباطنا بها هو الذي يجعلنا نضع تفسيرات مادية ومفاهيم مادية لجميع الظاهر في العالم. وليس قواعد العلم ومبادؤه. وإيماننا المطلق بالمادية هو سبب دعمنا اللامحدود لكل الأبحاث الجارية لإيجاد تفسيرات مادية لكافة الظواهر التي توجد في عالمنا، ولكون المادية صحيحة صحة مطلقة فلا يمكن أبدا أن نسمح للتفسيرات الإلهية أن تقفز إلى واجهة الأحداث".[69]

إن هذه الكلمات تعكس مدى الدوغمائية والارتباط الأعمى بالفلسفة المادية لهؤلاء العلماء ، ويعتبر غلاة أصحاب هذه النظرية أنه لا يوجد هناك شيء غير المادة ، ولهذا السبب يؤمنون بأن المواد غير الحية هي سبب وجود المواد الحية، أي أن الملايين من الأنواع المختلفة كالطيور والأسماء والزرافات

والنمور والحشرات والأشجار والزهور والحيتان وحتى الإنسان ليست إلا نتاجا للتحول الداخلي الذي طرأ على المادة بسبب عوامل طبيعية كالمطر المنهمر والرعد والصواعق. والواقع أن هذا الاعتقاد يتعارض تماما مع قواعد العقل والعلم ، إلا أن الداروينيين مازالوا يدافعون عن آرائهم خدمة لأهدافهم " لا يمكن أبدا أن نسمح للتفسيرات الإلهية أن تقفز إلى واجهة الأحداث ".

و كلّ إنسان ينظر إلى قضية أصل الأحياء من وجهة نظر غير مادية لابد له أن يرى الحقيقة الساطعة كالشمس، إنّ كافة الكائنات الحية قد وجدت بتأثير قوة لا متناهية وعقل لا حد له أي خلقت من قبل خالق لها، وهذا الخالق هو الله العلي القدير الذي خلق كل شيء من العدم وقال له كن فيكون .

قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا
عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
(البقرة: 32)

الهوامش

1 – ماكس مالوان، نظرة جديدة في طوفان نوح(ع)، العراق 4 _ 4xxvi- ، 1964، صفحة 66

2 _ المرجع السابق.

3 _ موسى إلي سيغ، جذور القرآن، العهد القديم والعهد الجديد في سومر، اسنبول: كيناك 1996 .

4 _ فيرنر كيللر، الإنجيل كتاريخ، إثبات كتاب الكتب، نيويورك: ويليام مورو، 1964، الصفحات 25 _ 29

5 _ ماكس مالوان، نظرة جديدة في طوفان نوح(ع)، العراق 4 _ 4xxvi- ، 1964، صفحة 70.

6 _ فيرنر كيللر، الإنجيل كتاريخ، إثبات كتاب الكتب، نيويورك: ويليام مورو، 1964، الصفحات 23 _ 32

7 _ "كيش" دائرة المعارف البريطانية الصغيرة مجلد 6 الصفحة 893 .

8 _ "شورباك" دائرة المعارف البريطانية الصغيرة مجلد 10 الصفحة 772 .

9 _ ماكس مالوان "فترة السلالة الحاكمة المبكرة في وادي الرافدين، التاريخ القديم 1 _ 2، كامبريدج: 1971 صفحة 238 .

10 _ جوزيف كامبيل، علم الأساطير الشرقية صفحة 129 .

11 _ Bilim ve utopya، تموز 176،1996، صفحة 19 .

12 _ إيفيرت بلاك، آنا إدموندز، المواقع الإنجيلية في تركيا، استنبول: دار الأحمر للطباعة والنشر.

13 _ فيرنر كيللر، الإنجيل كتاريخ، إثبات كتاب الكتب، نيويورك: ويليام مورو، 1964، الصفحات 57 _ 76 .

14 _ "عالم الإنجيل" علم الآثار والتاريخ تموز _ آب 1993 .

15 _ فيرنر كيللر، الإنجيل كتاريخ، إثبات كتاب الكتب، نيويورك: ويليام مورو، 1964، صفحة 76 .

16 _ المرجع السابق الصفحات 73 _ 74 .

17 _ المرجع السابق الصفحات 75 _ 76 .

18 _ إيرنست رايت "إحياء العهد القديم"، المجلة الجغرافية الوطنية مجلد 112 كانون الأول 1957 صفحة 833 .

19 _ توماس ماوف II "أوبار، المدينة الإسطورية المفقودة "مجلة لوس أنجلس تايم، 5 شباط 1992 .

20 _ كمال صليبي، تاريخ الجزيرة العربية، كتب كارافان 1980 .

21 _ بيرترام توماس Arabia felix: عبر "الربع الخالي" في الجزيرة العربية، نيويورك: أبناء شريبر 1932، صفحة 161 .

22 _ نشارلين كراب "البخور"، اكتشاف، كانون الثاني 1993 .

23 _ نيغل غروم، "البخور والمر" لونغمان، 1981 صفحة 81 .

24 _ المرجع السابق، صفحة 72 .

25 _ جوشيم شفازا، اليمن، مطابع A4، 1992 .

26 _ المرجع السابق.

27 _ بريان دو، جنوب الجزيرة العربية، تيمس وهدسون 1971، صفحة 21 .

28 _ Ca M' Interesse، كانون الثاني 1993 .

29 _ "هيكر" الموسوعة الإسلامية: العالم الإسلامي، تاريخ، جغرافية، إنثوغرافيا، وقاموس بيبلوغرافيا، المجلد1 / 5، صفحة 475 .

30 _ فيليب هيتي، تاريخ العرب، لندن: ماكميلان، 1979 صفحة 37 .

31 _ "ثمود" دائرة المعارف البريطانية الصغيرة.

32 _ بريان دو، جنوب الجزيرة العربية، تيمس وهدسون 1971، الصفحات 21 _ 22 .

33 _ إيرنست غومبريتش، عن الأصل الألماني "أساطير الشعوب لليافعين" 1997 _ صفحة 25 .

34 _ إيرنست غومبريتش، قصة الأدب، لندن MCML، مطابع فايدون، صفحة 42 .

35 _ إيلي برنافي، الأطلس التاريخي لليهود، لندن: هوتشينسون 1992، صفحة 4 "مصر"، موسوعة جودايكا، المجلد 6، صفحة 481 و "الخروج والتيه في سيناء"، المجلد 8، صفحة 575، عالم الإنجيل

رقم 83 تموز_ آب 1983 صفحة 50، المعهد الشرقي للأخبار رقم 144، شتاء 1995؛ جاك ليغراند، تاريخ العالم، باريس: تاريخ لونغمان، SA، المطابع الدولية، 1989، الصفحة 68 دافيد بن غوريون، الأطلس التاريخي لليهود، نيويورك 1974، صفحة 32.

36 _ www.plaguescape.com/a/plaguescape/2

37 "البحر الأحمر" موسوعة جوديكا المجلد 14، الصفحات 14 _ 15.

38 _ "دافيد بن غوريون"، اليهود في بلادهم، نيويورك 1974، الصفحات 32 _ 33.

39 _ "سبأ"، الموسوعة الإسلامية: العالم الإسلامي، تاريخ، جغرافية، إنثوغرافيا، وقاموس بيبلوغرافيا، المجلد 10، صفحة 268.

40 _ هوميل، المكتشفات في أرض الإنجيل، فيلادلفيا 1903، صفحة 739.

41 _ "مأرب"، الموسوعة الإسلامية": العالم الإسلامي، تاريخ، جغرافية، إنثوغرافيا، وقاموس بيبلوغرافيا، المجلد 7، الصفحات 323 _ 339.

42 _ المودودي، تفهيم القرآن، سيلت 4، استنبول: إنسان ياينلاري، صفحة 517.

43 _ فيرنر كيللر، الإنجيل كتاريخ، إثبات كتاب الكتب، نيويورك: ويليام مورو، 1964، صفحة 207.

44 _ الدليل الحديث للمسافرين إلى اليمن، صفحة 43.

45 _ موسى باران، إيفس الصفحة 23 _ 24

46 _ ماسنيون، أوبرا مينورا، المجلد الثالث، الصفحات 104 _ 108.

47 _ الطبري، تاريخ الأمم.

48 _ محمد أمين.

49 _ فخر الدين الرازي.

50 _ من تفسير القاضي البدوي، النسفي، الجلالين والتبيان.

51 _ أحمد أكوندوز، طرسوس والتاريخ وأصحاب الكهف.

52 _ Sidney Fox سيدني فوكس، Klaus Dose كلوس داز the Origin of life Molecular Evolution and التطور الجزيئي وأصل الحياة، نيويورك: Marcel Dekker 1977 ص 2.

53 _ Alexander I.Oparin الكسندر .أ.اوبارين، Origin of life أصل الحياة،1936 نيويورك، مطبوعات دوفر 1953 طبعة مكررة ص196.

54 _ New Evidence on evolution of early atmosphere and life دليل جديد على تطور الغلاف الجوي القديم والحياة، نشرة موجزة صادرة عن جمعية الأنواء الجوية الأميركية، المجلد 63 نوفمبر 1982 ص 1328 _ 1220.

55 _ Stanley miller ستانلي ميللر، Moleculer Evolution of life :Current status of the prebiotic sythesis of small Molecules 1998 ص40.

56 _ Jeffrey Bada جيفري بادا ، الأرض Earth فبراير 1998 ص40.

57 _ تشارلز داروين، أصل الأنوا ع: نسخة طبق الأصل للطبعة الأولى مطابع جامعة هارفارد 1964 ص 189.

58 _ تشارلز داروين، أصل الأنوا ع: نسخة طبق الأصل للطبعة الأولى مطابع جامعة هارفارد 1964 ص 184.

59 – B.G.Ranganathan بي.جي.رانكاناثان، Origins الأصول ؟ بنسلفانيا :مانشيت الحقيقية الموثوقة 1988.

60 – تشارلز داروين، أصل الأنوا ع: نسخة طبق الأصل للطبعة الأولى مطابع جامعة هارفارد 1964 ص 179.

61 – Derek A.Ager ديريك.أ.آجر، The Nature of the fossil record كبيعة سجلات الحفريات محاضر الجمعية الجيولوجية البريطانية المجلد 87 1976 ص 133.

62 – Douglas J.Futuyma دوغلاس.جي.فوتويما، العلم في قفص الإتهام، نيويورك: مطبوعات بانثيون 1982 ص197.

63 _ Solly Zuckerman سوللي زاخرمان Beyond the Ivory tower من خلال البرج العاجي، نيويورك منشورات توبلينغر 1970 ص75 _ 94، Charles E.Oxnard.
" موقع أوسترالوبيثيسنس في السلم التطوري للإنسان :أرضية ملائمة للشكوك " مجلة 258 ص 289.

64 _ J.Rennie جي رينيه، Darwin's Current bulldog: Ernest Mayr أرنست ماير :سفسطة داروين المستمرة ،المجلة العلمية الأمريكية ديسمبر 1992.

65 _ Alan Walker ، العلم العدد 207 1980 ص1103.A.J.kelso ، الأنثرلوبوجيا الفيزيائية ، الطبعة الأولى نيويورك: شركة J.B.Lipincott 1970 ص221.،D.Leakey.
أولديواي كوركي العدد 3 كمبريدج : مطابع جامعة كمبريدج 1971 ص 272.

66 _ مجلة نوفمبر 1996.

67 _ S.J.Gould س.ج.كولد: Natural History التاريخ الطبيعي العدد 85 1976 ص20.

68 _ Beyond The Ivory Tower.Solly Zuckerman من خلال البرج العاجي، نيويورك: منشورات توبلينغر 1970 ص19.

69 _ Richard Lewontin ريتشارد ليوينتن ، "The demon-haunted world العالم المثابة الشريرة " دليل نيويورك للكتب 9 يناير 1997 ص 28.